ماهر الشريف*

تاريخ فلسطين القديم في الكتابة العربية: قراءة في الإشكاليات

تسعى هذه الدراسة للإضاءة على تاريخ فلسطين القديم الذي لم يأخذ مكانة مهمة في الكتابة التاريخية العربية إلاّ اعتباراً من النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين، بينما ظل تاريخ فلسطين القديم حكراً على الباحثين الغربيين الذين اهتموا بدراسة تاريخ فلسطين من جميع النواحي الأثرية والاجتماعية واللغوية وغيرها.

لم يحتل تاريخ فلسطين القديم مكانة مهمة في الكتابة التاريخية العربية، وإنما بدأ الاهتمام الحقيقي بهذا الحقل اعتباراً من النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين، إذ سيطر التاريخ المعاصر على حقول الدراسات التاريخية المتعلقة بفلسطين، واستأثرت قضايا النضال الوطني ضد الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية باهتمام القسم الأكبر من المؤرخين العرب والفلسطينيين. وهكذا، ظل تاريخ فلسطين القديم ـ كما يلاحظ معاوية إبراهيم ـ "حكراً" على الباحثين الغربيين الذين اهتموا بدراسة تاريخ فلسطين "من جميع النواحي الأثرية والاجتماعية واللغوية وغيرها، وتوالت رحلاتهم الاستكشافية وأعمالهم منذ الفترة اليونانية حتى الوقت الحالي، فجاءت معظم المصادر إن لم تكن جميعها مكتوبة بوساطة علماء الآثار والتاريخ القديم الأوروبيين والأميركيين وبلغاتهم المختلفة."[1] أمّا الباحث السوري فراس السواح، فيرى أن تاريخ فلسطين القديم "لم يلقَ العناية اللازمة من قبل الباحثين العرب" الذين "لم يكونوا طرفاً أمام الفكر التوراتي في الصراع على الماضي، رغم حضور[هم] القوي في الصراع على الحاضر." فالبحث التاريخي العربي بقي ـ كما يتابع ـ "غير معني بالجدل الدائر في

* باحث في مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت.

الغرب بخصوص تاريخ فلسطين"، بينما ظلت الأبحاث العربية "التي راحت تبحث عن مصداقية الحدث التوراتي في بقاع جغرافية بعيدة عن فلسطين... خارج مجال هذا الجدل، وهي على ثوريتها وجدية أصحابها تسير في طريق مسدود."[٢]

من الصحيح أن المكتشفات الأثرية الجديدة في فلسطين زادت من معرفة الباحثين "بشكل كبير حول مناطق وفترات معينة في فلسطين القديمة"، غير أن المعلومات المستخلصة منها "لا تزال تنقصها الدقة بالمقارنة مع المصادر المتوافرة [لـ] دارسي تاريخ القرون الوسطى والحديثة"، الأمر الذي يفرض على المؤرخ المتخصص في تاريخ فلسطين القديم "أن يرضى بفهم عام للتاريخ."[٣]

وسأحاول فيما يلي أن أتوقف عند عدد من الإشكاليات والصعوبات التي يواجهها الباحث في تاريخ فلسطين القديم.

إشكالية المصادر

استندت، في الماضي، دراسات الباحثين الغربيين لتاريخ فلسطين القديم، إلى مصدر رئيسي هو التوراة، إذ كانت الدراسات التوراتية "جزءاً من الخطاب الاستشراقي الغربي وامتداداً له في نواح عديدة." وحتى أواسط القرن العشرين، كان من السهل على الأكاديميين التوراتيين صوغ تفسيراتهم "المتعسفة" لنتائج التنقيب الأثري في فلسطين، وربطها بمجريات الرواية التوراتية، لكن بعد تنقيبات عالمة الآثار البريطانية كاثلين كينون في مدينة القدس، خلال أواسط ستينيات القرن العشرين، اتسعت حملات التنقيب، وخصوصاً في مناطق الهضاب الفلسطينية، وصار يتبين للمؤرخين والآثاريين "صعوبة ملاءمة هذه المعلومات مع الصورة المتوهمة عن تاريخ إسرائيل ويهودا، وتاريخ فلسطين بشكل عام." هكذا، تشكّل في الغرب تيار "أطلق عليه خصومه اسم تيار المراجعين أو الراديكاليين، انطلاقاً من موقفهم الراديكالي المتحرر من سطوة الفكر التوراتي."[٤] ففي نظر الباحث ليتش، فإن التوراة العبرية ليست "مرجعاً" يعكس بالضرورة الحقائق التاريخية، وإنما هي "تبرير للماضي يكشف عن عالم القصص الخيالية أكثر ممّا يكشف عن أي حقيقة تاريخية." فالتصورات التقليدية لحكم كل من داود وسليمان، "غير قابلة للتصديق إلى حد بعيد. ولا توجد أي آثار تدل على وجود هؤلاء الأبطال أو حدوث أي من الأحداث المرتبطة بهم."[٥]

علاوة على المكتشفات الآثارية التي تنتج من عمليات التنقيب والبحث المستمرة، صار في وسع الباحث في تاريخ فلسطين القديم الاستناد إلى عدد من المصادر المكتوبة، ومن أهمها رُقم المكتبة الملكية التي اكتُشفت في "إيبلا" في شمال سورية، والتي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وتحوي أكثر من ١٥,٠٠٠ رقيم (لوح طيني مكتوب). فمن هذه الألواح عرف الباحثون ـ كما يؤكد المشرف على عمليات التنقيب في سورية عفيف بهنسي ـ "أشياء كثيرة تتعلق بمنطقة بلاد الشام وخاصة فلسطين، ومنها أن الشعب الذي كان يعيش في إيبلا هو شعب يتكلم لغة تختلف قليلاً عن لغة أكاد في بلاد الرافدين، وتقترب من لغة كنعان في الساحل السوري وفلسطين، وكان يؤمن بنفس الآلهة والعقائد، ويمارس التقاليد والطقوس التي كانت شائعة في هذه المنطقة من الرافدين إلى سيناء. كما أن ورود أسماء مثل إسماعيل ʼيسمع إيلʼ، وميكايل ʼ من ـ ك ـ إيلʼ وغيرها، في هذه

الألواح، دليل على أن إيل، الذي اشتهر بكونه الرب الأعلى للناس جميعاً، كان معبوداً منذ الألف الثالث قبل الميلاد، بمعنى أن التوحيد كان موجوداً منذ بداية التاريخ، كما أن ظهور أسماء مثل دامسكي (دمشق)، و أماتا (حماه)، وأورسالم، أي مدينة السلام، في كتابات إيبلا، يعني أن هذه المدن قديمة جداً."[٦]

وكان فلاح سوري قد اكتشف في سنة ١٩٢٨، في رأس شمرا إلى الشمال من اللاذقية، المدينة الساحلية التي عُرفت أيام الفينيقيين بمدينة أوغاريت، وفيها عُثر "على مجموعة من اللوحات المسمارية، معظمها أساطير وملاحم شعرية وأناشيد وصلوات دينية كُتبت باللغة الكنعانية ـ الفينيقية، وتعود إلى سنة ١٥٠٠ ق. م. تقريباً."[٧]

أمّا في مصر، فقد كانت أهم المكتشفات "رسائل تل العمارنة"، التي عُثر عليها في سنة ١٨٨٧ في موقع قرية بدوية قائمة على خرائب مدينة فرعونية تسمى "أفق آتون"، ويقع هذا التل في مصر الوسطى على الضفة الشرقية لنهر النيل، وعلى بعد نحو ٣٠٠ كم جنوبي القاهرة. وتعود هذه الرسائل "التي بلغ عددها ٣٦٠ آجرة أو لوحة مسمارية، إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد"، وهي عبارة عن "مراسلات كانت تتم بين ولاة الأقاليم والحكام وبين فراعنة مصر"، وتُعتبر "من أفضل المصادر الموثوق بها فيما يتعلق بالحياة السياسية والاجتماعية والدينية لتلك العهود الغابرة في المنطقة، التي تشمل اليوم سورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين، والعراق."[٨] واشتملت هذه الرسائل على ست رسائل "كتبها الملك عبدي هيبا ملك أورسالم"، ومنها نتبيّن أن فلسطين "كانت مقسمة إلى ممالك مدن صغيرة"، مثل أورسالم، وغزة، وعسقلان، ويافا، ومجدو، وحاصور، وفحل، وشكيم، وعشتروت، وعكا ...إلخ[٩]. ويبدو أن الفراعنة المصريين كانوا يدفعون، في تلك المرحلة، حكام ممالك المدن في بلاد الشام "للتصارع فيما بينهم للحيلولة دون وحدتهم وتحالفهم للإبقاء على مصالح الخزانة المصرية وما يردها من ضرائب ومنتجات زراعية وثروات طبيعية، ولاستغلالهم عسكرياً واستراتيجياً للوقوف في وجه الأطماع الحثية والميتانية وشعوب البحر."[١٠]

كما عُثر في مصر في سنة ١٩٢٥، في منطقة الأقصر، على ما عُرف باسم "نصوص اللعنة"، وهي مجموعة ألواح "تُنسب عادة إلى فترة الأسرة الثانية عشرة، وبوجه أكثر تحديداً إلى فترة حكم سيزو ستريس الثالث (١٨٧٩ ـ ١٨٤٢ ق. م.)"، وفيها ذُكرت أسماء البلاد والمدن والحكام الذين "لُعنوا بسبب نواياهم أو أفعالهم الشريرة، الحقيقية أو المحتملة، ضد مصر. وقد ظهر اسم أورسالم في مجموعة الألواح هذه."[١١]

ويبدو أن اسم "إسرائيل" غاب عن هذه المصادر كلها، ولم يرد سوى في لوح حجري منقوش اكتُشف في مصر في سنة ١٨٩٦، وصار يُعرف باسم "لوح مرنبتاح"، وهو يشير "إلى هزيمة إسرائيل على يد الفرعون مرنبتاح ١٢٣٦ ـ ١٢٢٣ ق. م." بيد أن عدداً من الباحثين الغربيين شكك في أن يكون اسم إسرائيل، الوارد في هذا اللوح، "دليلاً على وجود دولة بهذا الاسم في ذلك التاريخ"، إذ اعتبر الباحث طمسن أن إسرائيل "كانت اسماً لشعب كنعان (فلسطين الغربية)، الذي يقول النقش إن جيش الفرعون المصري دمرهم، أمّا إسرائيل، الدولة المحلية التي سيطرت على المرتفعات شمالي القدس، فقد ظهرت للوجود بعد

بضعة قرون من الفرعون مرنبتاح."[١٢]

علاوة على هذه النقوش والنصوص القديمة، يمكن للباحث في تاريخ فلسطين القديم أن يلجأ ـ كما يرى إبراهيم ـ إلى المصادر التالية: أولاً، كتابات المؤرخين والجغرافيين منذ العهد الهلينستي حتى البيزنطي، ومن أهمها كتب التاريخ التي تركها المؤرخ اليوناني هيرودوتس (منتصف القرن الخامس ق. م.)، وكتب أسقف قيسارية الفلسطينية "يوسيبيوس" التي تُعتبر من أهم المصادر البيزنطية عن فلسطين؛ ثانياً، كتابات الجغرافيين والإخباريين والرحالة العرب، مثل ياقوت الحموي، والإصطخري، والبلاذري، والمقدسي، وابن حوقل؛ ثالثاً، كتابات الحجاج والرحالة، ومن أولهم السويسري فيلكس شميدت فابري الذي زار فلسطين خلال الفترة ١٤٨٠ ـ ١٤٨٣م.[١٣]

إشكالية كتابة تاريخ فلسطين القديم كموضوع قائم بذاته

إن الخطاب المهيمن للدراسات التوراتية متورط ـ كما يرى كيث وايتلايم ـ في عملية "تجريد الفلسطينيين من ماضيهم وأرضهم بتكراره المستمر عدداً من الادعاءات التي تربط الماضي بالحاضر." فالإصرار على الاستمرارية بين الماضي والحاضر"لا يُنظر إليه إلاّ في إطار الاستمرارية بين إسرائيل التي حكمها داود ودولة إسرائيل المعاصرة"، وبالتالي في إطار الزعم بـ"أزلية" الحركة الصهيونية التي لم تنطلق في الواقع، كحركة استعمارية استيطانية، إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر. أمّا الشعب الفلسطيني "فليس هناك أي مفهوم مماثل لأي استمرارية له بين الماضي والحاضر"، بحيث بات تاريخ فلسطين "أحد التواريخ الكثيرة المستثناة والمجردة من أهميتها في التاريخ العالمي، والتي تمّ نفيها إلى ما قبل التاريخ."[١٤]

بيد أن الإعلان عن موت "التاريخ التوراتي"، بات يفرض على الباحثين ـ كما يتابع وايتلايم ـ "الاعتراف بشكل تدريجي بالتاريخ الفلسطيني كموضوع قائم بذاته يهتم بالاقتصاد والسكان (الديموغرافيا) والاستيطان والأديان والأيديولوجيات الخاصة بفلسطين بشكل عام"، ودراسة هذا التاريخ كجزء من خطاب "الدراسات الحضارية"، عن طريق "إعادة اكتشاف التراث الحضاري والثقافي والفني لفلسطين القديمة، والذي نشهده من خلال النصوص المكتوبة وأشكال التراث الأُخرى (ومنها التوراة العبرية)، والأواني الفخارية والمصنوعات اليدوية، والأبنية التذكارية، والآثار المادية، وهذه كلها تشهد على منجزات سكان فلسطين."[١٥]

وخلافاً للرواية التاريخية التوراتية التي تنظر إلى سنة ١٢٠٠ ق. م. باعتبارها "الخط الفاصل في تاريخ المنطقة، والفترة التي شهدت نشوء الكيان المستقل، إسرائيل" التي أصبحت "تسيطر على تاريخ المنطقة بدلاً من القوى الإمبريالية العظمى، أي مصر القديمة وآشور وبابل وفارس واليونان وروما"، يؤكد وايتلايم أن الحفريات أكدت "الاستمرارية" في الثقافة المادية بين فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، أي في حدود سنة ١٢٠٠ ق.م. وأظهرت أن فلسطين لم تشهد ولادة "قوة عظمى" في تلك الفترة، وإنما كان ضعف بناها التحتية، مقارنة بجيرانها أصحاب الحضارات النهرية الكبيرة، "عاملاً دائماً في خضوعها للقوى العظمى الخارجية." كما أن فلسطين كانت تفتقر، في تلك الفترة، "إلى القاعدة السكانية والاقتصادية التي تتيح لها منافسة القوى العظمى في العالم

القديم."[١٦]

ويخلص وايتلايم، الذي لا ينكر قيام مملكتَي إسرائيل ويهودا في فلسطين في الألف الأول قبل الميلاد، إلى أن التاريخ الإسرائيلي واليهودي يمثّل "جزءاً من تاريخ فلسطين القديم الأشمل"، وستوفر دراسة هذا التاريخ الأشمل "فهماً أكثر إيجابية للمنجزات المادية والحضارية لسكان هذه المنطقة ككل." أمّا النظرة التطورية التي "افترضت حلول الحضارة الإسرائيلية محل الحضارة الكنعانية"، فإنها عبارة عن "مكيدة تؤدي إلى الحط من قدر المميزات الجمالية والثقافية في الآثار الفنية للأواني الفخارية والخزف المزخرف والزجاجات والحلي وغيرها، ممّا نراه في آثار فلسطين."[١٧]

والواقع، أن معظم الأبحاث والدراسات العربية بشأن تاريخ فلسطين القديم ـ والتي أتيحت لي فرصة الاطلاع عليها ـ ركّز على دراسة هذا التاريخ انطلاقاً من العصر الذي يُعرف باسم "العصر الحديدي"، والذي يبدأ في سنة ١٢٠٠ ق. م. تقريباً، بينما لم يركّز سوى عدد ضئيل من هذه الأبحاث والدراسات على المراحل الموغلة في القدم لتاريخ فلسطين، وقد يكون من أهمها بحث معاوية إبراهيم، مدير معهد الآثار والأنثروبولوجيا في جامعة اليرموك في الأردن، والذي نُشر في سنة ١٩٩٠، بعنوان: "فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد"، واستند مؤلفه في إعداده "إلى خلاصة عمل كبير قام به عدد من المؤرخين والعلماء الأجلاء عبر عشرات السنين الماضية."[١٨]

ففي بحثه هذا، تصدّى معاوية إبراهيم لدراسة المراحل التاريخية التي سبقت "العصر الحديدي"، والتي تبدأ مع مرحلة العصور الحجرية القديمة، "مرحلة التنقل وجمع القوت، التي شهدت قيام الإنسان بصنع أدواته من الحجارة"، والتي من الصعب ـ كما يشير الباحث نفسه ـ وضع تاريخ دقيق لبدايتها. وتعقب هذه المرحلة الأولى مرحلة انتقالية شهدت ـ بين سنتَي ١٩٠٠٠ و٨٠٠٠ ق. م. تقريباً ـ انتقال الإنسان "من مرحلة جمع القوت إلى مرحلة الإنتاج، وعُثر على مجموعة أدوات حجرية عائدة إلى هذه المرحلة في كهف كبّارا في جبال الكرمل بفلسطين." ثم تبدأ مرحلة استقرار الإنسان في القرى الزراعية، في العصر الحجري الحديث بين سنتَي ٨٠٠٠ و٤٠٠٠ ق. م. تقريباً، إذ ظهر من المكتشفات، في "أريحا وفي وادي الفلاح على الساحل بالقرب من حيفا"، أن الإنسان في فلسطين، الذي كان يعبد ويقدس أسلافه، عاش "صياداً وجامعاً للقوت، وتكوّنت بقايا الحيوانات المصطادة التي عُثر عليها من عظام الغزلان والماشية والخنازير والثعالب." كما تمّ العثور في مدينة أريحا "على بذور الشعير والقمح والبازيلاء والعدس."[١٩]

وفي نهاية هذه المرحلة، أي في حدود ٤٠٠٠ ق. م. تبدأ "مرحلة العصر الحجري الحديث المتأخر، الفخاري"، والتي عرف الإنسان فيها ـ مثلما يتابع إبراهيم ـ مادة الفخار وصار "يستعملها في صنع أدواته اليومية"، كما اعتمد الناس في هذه المرحلة في معيشتهم على "زراعة المحاصيل الزراعية وتربية الحيوانات المستأنسة"، واستعملوا "الحُفر للسكن". وتركّزت حضارة هذه المرحلة "في أريحا وفي موقع المنحطة، وفي تل المتسلم وبيسان والشيخ علي وبلاطة وتل الفارعة وغيرها." ثم عرف الإنسان في مرحلة لاحقة تصنيع النحاس الذي صار "يُستعمل في البدء بكميات قليلة، إلى جانب الأدوات الحجرية والصوانية وكذلك الفخارية التي بقيت هي الغالبة في

الاستعمال." وكان أول مواقع هذا العصر هو "موقع تليلات غسول في وادي الأردن إلى الشمال الشرقي للبحر الميت، حيث تشير مخلفات الموقع إلى مجتمع من مجتمعات القرى الزراعية." وكان سكان تليلات غسول "يدفنون موتاهم، وبخاصة الأطفال، في جرار فخارية." وفضلاً عن موقع تليلات غسول، تمّ اكتشاف ثلاثة مواقع مهمة تقع بالقرب من بئر السبع، وهي "خربة البيطار وبئر الصفدي وتل أبو مطر"، كما وُجدت لقى فخارية وصوانية في مواقع متعددة "في ضواحي يافا وتل أبيب مشابهة لحضارة غسول / بئر السبع."[٢٠]

ويعود عصر دويلات المدن، أو العصر البرونزي القديم، إلى ٣٢٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق. م. وذلك بعد أن شهدت منطقة الشرق القديم، ومنها فلسطين مع نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ـ كما يلاحظ إبراهيم ـ "تغيراً حاسماً في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية"، إذ تحوّلت مواقع السكن في مختلف مناطق فلسطين بالتدريج إلى "مدن محصّنة"، وغدت تمثّل "وحدات سياسية مستقلة أشبه بدويلات المدن التي يتبعها عدد من القرى الزراعية." وتتميز هذه المرحلة باستعمال "عجلة الفخار على نطاق واسع"، وقيام السكان "بخلط النحاس بنسبة معينة من القصدير، فأنتجوا أدوات برونزية متعددة الأشكال والوظائف." ومع بداية الألف الثاني ق. م. بدأت المدن تتكاثر وتنتشر، وظهر معها "أنماط جديدة من العمارة والمدافن وأنواع جديدة من الخزف والأسلحة." وتتميز هذه المرحلة "بعلاقات تجارية وسياسية متطورة مع غالبية مناطق الشرق القديم، وبشكل خاص مصر وعمق بلاد الشام."[٢١]

وينهي معاوية إبراهيم دراسته للمراحل التاريخية التي سبقت "العصر الحديدي" بالتوقف عند العصر البرونزي الأخير الذي يمتد من منتصف القرن السادس عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر ق. م. ويتسم "بالسيطرة المصرية شبه التامة على بلاد الشام، ومنها فلسطين." ويستنتج من انتشار المدن والكهوف والحصون "ازدهار الحياة الاقتصادية في فلسطين خلال معظم الألف الثاني قبل الميلاد، والذي يُعزى إلى استغلال الأرض الزراعية وتطوير التجارة مع مصر والجزر الإيجية وبشكل خاص مع مدن شمال سورية." وفضلاً عن فئات التجار والفلاحين، برزت في ذلك العصر مجموعات من الحرفيين، من أمثال البنائين وصانعي الطوب وصانعي الخزف وصانعي الأسلحة.[٢٢]

إشكالية أصل بني إسرائيل وموطنهم

باتت إشكالية أصل بني إسرائيل وموطنهم من أبرز الإشكاليات التي يواجهها الباحث في تاريخ فلسطين القديم، وخصوصاً بعدما تعددت الفرضيات التي انطلق منها الباحثون في هذا الحقل. وسأتوقف، فيما يلي، عند بعض هذه الفرضيات:

I ـ نيلز لمكة ودحض "نماذج تفسير الغزو الإسرائيلي لكنعان"

يسعى الباحث الدنماركي نيلز لمكة لتبيان تهافت معظم الفرضيات الغربية الشائعة بشأن استيطان بني إسرائيل في فلسطين وقيام إسرائيل، فيبدأ بـ "فرضية الغزو" التي يستند أنصارها إلى ما جاء في سفر يشوع من أسفار التوراة، وتقوم على أن بني إسرائيل "النازحين في الصحراء حملوا وعداً من ربهم يهوه بأنهم سوف يغزون بلادهم في نهاية المطاف وسيقومون

بإبادة السكان الكنعانيين السابقين." وأنهم بدأوا فعلاً بغزو مدينة أريحا الكنعانية "قبل أن يقوموا بغزو وتدمير بلاد كنعان الجنوبية والوسطى والشمالية." بيد أن الحفريات الأثرية أثبتت ـ كما يؤكد لمكة ـ أن مدينة أريحا "لم تكن موجودة في زمن يشوع المفترض، بل من المحتمل أنها قد دُمرت قبلئذ في منتصف القرن السادس عشر قبل التأريخ الشائع [قبل الميلاد]"، في حين أن مدينة عاي، التي يُزعم أنها المدينة الثانية التي استهدفها الغزو "كانت خراباً منذ سنة ٢٣٠٠ قبل التأريخ الشائع عندما هُجرت في نهاية العصر البرونزي المبكر، ولمَ تعمّر أبداً."[٢٣]

أمّا الفرضية الثانية عن استيطان بني إسرائيل في فلسطين فإنها "فرضية الهجرة" التي تفترض "حدوث هجرة سلمية على نحو رئيسي للبدو الإسرائيليين الذين استوطنوا على نحو تدريجي في فلسطين وسيطروا على الأرض في لحظة معينة"، وكانوا "مختلفين إثنياً" عن الكنعانيين. ودحضاً لهذه الفرضية، يؤكد لمكة أنه "لا توجد في الثقافة المادية أي إشارة إلى أمة جديدة وصلت حديثاً" إلى فلسطين في حدود سنة ١٢٠٠ ق. م.، وأن الدليل الوحيد على وجود عنصر "إثني" أجنبي يعود "إلى الفلسطيين الذين استوطنوا بوصفهم جزءاً من حركة شعوب البحر أو وطّنهم أسيادهم المصريين على ساحل فلسطين. ولم يتم العثور على دليل واحد على وجود بني إسرائيل."[٢٤]

أما "فرضية الثورة" التي تقوم على فكرة "أن الإسرائيليين لم يؤلفوا جماعة إثنية يتعين فصلها عن الجماعات السكانية الأُخرى في فلسطين"، وأنهم كانوا "فقراء ومدقعين كافحوا لأجل البقاء في نظام سياسي واقتصادي يتصف بالظلم والاضطهاد"، وذلك إلى أن "وصل موسى (أو شخص ما مثل موسى) مع الديانة اليهودية التي تقول إن كل البشر متساوون"، فبدأت "ثورة المضطهدين ضد بطرونات المجتمع الكنعاني الذين كانوا يستغلون فلاحي فلسطين"، فهي ـ بحسب ملكة ـ فرضية ذات "خلفية مثالية"، ولا تتفق "مع الاستقصاءات الأحدث عهداً في التاريخ الديني لإسرائيل القديم"، والتي يُفهم منها أن "اليَهويّة التوحيدية" كانت "تطوّراً دينياً للتوحيد، ظهر مع مرور الزمن وأصبح على نحو ما بارزاً في فلسطين قبل الهجرات اليهودية إلى فلسطين من بلاد النهرين في النصف الثاني من الألف الأول قبل التأريخ الشائع."[٢٥]

وبعد أن يعرض الباحث الدنماركي "فرضية النشوء" التي يعتبر أنصارها أن الإسرائيليين "لم يكوّنوا في الأصل قوماً منفصلين، مختلفين عن الكنعانيين"، وأن "الثقافة المادية للعصر البرونزي المتأخر استمرت أيضاً في العصر الحديدي المبكر"، يخلص إلى أن فلسطين شهدت، بالفعل، قيام مملكة لبني إسرائيل، كانت عبارة عن "ولاية إقليمية صغيرة من فلسطين الوسطى والشمالية"، استمرت "من حوالي عام ٩٠٠ إلى عام ٧٠٠ قبل التأريخ الشائع." أمّا اليهودية التي ظهرت "في بلاد النهرين في العهد الفارسي"، فانتقلت إلى فلسطين على الأغلب ـ كما يتابع لمكة ـ في "بداية القرن الرابع قبل التأريخ الشائع"، حيث "اندمج تراث النهرين مع التراث المحلي محافظاً بذلك على تراثات كثيرة من الماضي، وخصوصاً ماضي مملكة بني إسرائيل الميتة منذ زمن طويل." وبعد إقامة هذا الربط ما بين تراث النهرين والتراث الفلسطيني، "جرى استدعاء التراث المصري لإعطاء فكرة عن الإسرائيليين الهاربين من مصر، ربما تكون نسخة 'فلسطينية' من الحكاية المصرية القديمة عن طرد الهكسوس."[٢٦]

II ـ كمال الصليبي: "أرض التوراة في غرب شبه الجزيرة العربية"

لم يقتصر الخلاف بشأن أصل بني إسرائيل وموطنهم على الباحثين الغربيين، بل طاول أيضاً الباحثين العرب أنفسهم.

فقد طرح كمال الصليبي الذي كان يشغل منصب أستاذ التاريخ القديم في الجامعة الأميركية في بيروت، فرضية أثارت جدلاً واسعاً في الساحة الثقافية العربية، وفحواها أن البيئة التاريخية للتوراة لم تكن في فلسطين، وإنما في غرب شبه الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديداً في بلاد السراة، أي في جنوب الحجاز في المنطقة المعروفة اليوم بعسير. وبالتالي، فإن بني إسرائيل هم من شعوب العرب البائدة، أي من شعوب الجاهلية الأولى الذين كان لهم، بين القرن الحادي عشر والقرن السادس قبل الميلاد، ملكاً في بلاد السراة. وقد زال هذا الشعب من الوجود بزوال مُلكه، ولم يعد له أثر بعد أن "انحلت عناصره وامتزجت بشعوب أُخرى في شبه الجزيرة العربية وفي غير شبه الجزيرة العربية." أمّا اليهودية، فهي ديانة توحيدية "وُضعت أسسها أصلاً على أيدي أنبياء من بني إسرائيل، وانتشرت على أيديهم أول الأمر ثم استمرت في الانتشار بعد زوالهم وانقراضهم كشعب."[٢٧]

وبعد أن يشير الصليبي إلى أن "تاريخية" عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد في العقود الأخيرة، بينما "جغرافية"[٢٨]هذه الروايات استمرت معتبَرة من المسلمات، يذكر أن منهجه سيقوم على قلب الأمور رأساً على عقب، بحيث "بدلاً من أن يأخذ جغرافيا التوراة كمسلّمة ويناقش صحتها كتاريخ، سيأخذ تاريخيتها كمسلّمة ويناقش جغرافيتها"، وذلك عبر إعادة النظر في خريطة التوراة، "من خلال المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة في التوراة بالحرف العبري، وأسماء أماكن تاريخية أو حالية في جنوب الحجاز وفي بلاد عسير"، مأخوذة إمّا عن قدامى الجغرافيين العرب، أو عن المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية، أو عن معاجم جغرافية أُخرى، وعن بعض الكتب مثل كتاب "في ربوع عسير، ذكريات وتاريخ"... إلخ. وفضلاً عن هذه المصادر، سيستند الصليبي ـ كما يؤكد ـ إلى مشاهداته خلال الزيارة التي قام بها إلى المنطقة المعنية للاطّلاع المباشر على طبيعتها، وللتحقق من اللفظ المحلي لبعض أسماء المواقع فيها.[٢٩]

ويرى الصليبي أن بني إسرائيل كانوا في زمانهم يمثلون ائتلافاً قبلياً بين مجموعة من "الأسباط" اجتمعت حول عبادة إله واحد اسمه "يهوه"، وهو بالنسبة إليهم "الرب". والأسباط هذه من أصول مختلفة، ومنها "سبط لاوي" الذي كان منه وحده الكهنة. أمّا بقية الأسباط، فكانت أحد عشر في العدد، ومن هذه عشرة كانت تُعرف أصلاً، على ما يبدو، باسم "إسرائيل"، وتنتسب إلى الشعب "العبري" أو "العبراني"، وكان من أبرزها "سبَط بنيامين"، وبالعبرية "بن يمين"، أي "ابن الجنوب"، أو "ابن اليمن". أمّا السبط الحادي عشر في الائتلاف القبلي لبني إسرائيل، فكان "سبط يهوذا"، وبالعبرية "يهوده".[٣٠] ويتابع الصليبي عرضه فيذكر أن أول ملك على مملكة إسرائيل كان عبرياً من سبط بنيامين اسمه شاوُل بن قيس (١٠٢١ ـ ١٠٠٠ ق.م تقريباً)، ويبدو أن هذا الأمر لم يرُق بني يهوذا، فقام هؤلاء يناهضون الملك شاول بقيادة زعيم شاب منهم اسمه داود بن يِسَيّ. وكان لشاول طوال سني ملكه حروب مع الفَلَسَة (بالعبرية التوراتية "ه ـ فلشتيم"، وهي صيغة جمع

النسبة من "فلشت")، وقد قُتل شاول في آخر واقعة له مع الفلسة، وقُتل ثلاثة من أبنائه الأربعة معه، وانتقل المُلك إلى آخر مَن تبقّى من بنيه. وكان بنو يهوذا قد نصّبوا داود ملكاً على يهوذا كي ينافس ابن شاول على مُلك جميع إسرائيل، وقامت الحروب بين الفريقين ودامت سنتين (١٠٠٢ ـ ١٠٠٠ ق.م)، إلى أن انتهت باغتيال ابن شاول غدراً، وبويع داود على مُلك "جميع إسرائيل". وعند وفاته، انتقل ملكه إلى ابنه سليمان (٩٦٢ ـ ٩٢٥ ق.م. تقريباً)، فأحسن سليمان تدبير المملكة، وصار له شهرة واسعة، لكن ما لبثت مملكته أن انقسمت فور موته إلى مملكتين: الأولى مملكة يهوذا التي توارثها الملوك من الأسرة الداودية، من سلالة سليمان، والثانية مملكة إسرائيل التي انتقل الحكم فيها من أسرة إلى أسرة من المتغلبة. وكان مركز مملكة يهوذا في مرتفعات السراة، وتتبعها نواح مختلفة من تهامة، بينما كان مركز مملكة إسرائيل في تهامة، وجاءت الحدود بين المملكتين متداخلة في معظم المواقع. واستمرت مملكة إسرائيل في الوجود حتى انتهى أمرها في سنة ٧٢١ ق. م. على يد الملك الآشوري سرجون الثاني، وسيق أهلها من أسباط إسرائيل العشرة إلى "حله ـ زه"، وهي اليوم قرية حلزا بمنطقة نجران، وإلى "حبور"، وهي اليوم قرية "الخبار" بناحية بلغازي من منطقة جيزان. وبعد زوال مملكة إسرائيل وتشتيت أهلها، استمرت مملكة يهوذا في سراة عسير وأصدار تهامة، إلى أن كانت نهايتها على يد نبوخذ نصر ملك بابل قرابة سنة ٥٨٦ ق. م.، وسُبي الأعيان من شعبها، علاوة على فريق كبير من العامة، وسيقوا إلى بلاد بابل في جنوب العراق.[٣١]

وما لبثت دولة بابل أن انهارت، وجاء دور الدولة الفارسية الأخمينية. ففي سنة ٥٣٨ قبل الميلاد، فتح الفرس بابل، وفي سنة ٥٢٥ ق. م.، اجتاحوا الشام واحتلوا مصر، ووسعوا رقعة حكمهم ليشمل كثيراً من شبه الجزيرة العربية. وبإذن من الفرس أنفسهم، عاد نحو ٤٠,٠٠٠ من أبناء الأسرى الإسرائيليين في بلاد فارس والعراق مع عائلاتهم إلى غرب شبه الجزيرة العربية، وفي نيتهم إعادة بناء مجتمعهم هناك، لكن سرعان ما خابت آمال هؤلاء الإسرائيليين العائدين، إذ وجدوا كل ما حولهم خراباً وفقراً. أمّا ما تلا ذلك فلا يمكن اكتشافه إلاّ بالتكهن، لأن الرواية التاريخية للتوراة العبرية تتلاشى وتنتهي عند هذه النقطة، وينتهي معها تاريخ بني إسرائيل الذين زالوا من الوجود كشعب.[٣٢]

ويفترض كمال الصليبي أن الأصول الحقيقية لليهودية يجب البحث عنها في ثنايا الاتجاه في منحى التوحيد في عسير القديمة حيث تمّ الجمع في وقت ما بين عدد من آلهة الجبال (ومنهم يهوه وآلهة صبءوت وشلم وشدي وعليون، وهم في الترجمة العربية المعتمدة "الرب" و"إله الجنود" و"إله السلام" و "الله القدير" و"الله العلي")، واعتُرف بهم كإله واحد أسمى. وهكذا، بات بنو إسرائيل يعبدون "الرب" يهوه باعتباره الكبير بين الآلهة، والخالق للكون، وهو الإله القدير الذي اختار بني إسرائيل ـ بحسب معتقدهم ـ ليكونوا له شعباً خاصاً يخلص العبادة له وحده وفق الشريعة التي وضعها لهم موسى. والشريعة هذه هي "التوراة" بمعنى "التعليم" [والكلمة تعني حرفياً "التربية"]. ولم يكن يهوه إلهاً منظوراً يتمثل في صنم، وإنما كان روحاً خفية مسكنها في صندوق من خشب السنط يحتوي على ألواح "الوصايا العشر" التي تسلمها موسى أصلاً من يهوه، ويسمى "تابوت العهد"، وكان بنو إسرائيل يحملونه حيثما يتوجهوا.[٣٣] وبشأن علاقة اليهودية

بفلسطين، يعتبر الصليبي أن هذه العلاقة نتجت من عوامل عدة، أولها جغرافي، وهو أن بلاد الشام ما هي إلاّ امتداد لأرض غرب الجزيرة العربية في اتجاه الشمال، وأنها شهدت نزوحاً بشرياً إليها من بلاد غرب الجزيرة العربية منذ أقدم العصور. وقد بدأ المذهب اليهودي في البروز بشكله المميز في بلاد بابل في العراق، ثم انتشر إلى غرب الجزيرة العربية، وإلى بلاد الشام، ومنها فلسطين.[٣٤]

III ـ فاضل الربيعي: "أرض التوراة في اليمن القديم"

إذا كان كمال الصليبيي قد افترض أن أرض التوراة كانت في غرب شبه الجزيرة العربية، وتحديداً في منطقة عسير، فإن فاضل الربيعي، الباحث العراقي المتخصص بالميثولوجيا والدراسات الأنثروبولوجية، يفترض، في كتابه: "فلسطين المتخيّلة ـ أرض التوراة في اليمن القديم"، أن أرض التوراة كانت في اليمن القديم.

لقد نظر الربيعي إلى كتاب كمال الصليبي: "التوراة جاءت من جزيرة العرب" باعتباره "فتحاً معرفياً عظيماً في الثقافة العربية"، لكنه أشار إلى أن هذا الكتاب لم يكن "مقنعاً" بالنسبة إليه، بل لعله "فاقم من درجة الشكوك بفرضياته، لسبب بسيط للغاية هو أنه انصرف إلى ما يشبه الألعاب اللغوية للبرهنة على وجود أرض التوراة في منطقة عسير."[٣٥] وبخلاف الصليبي، أشار الربيعي إلى أنه لن يغيّر في تراكيب أسماء الأماكن والقبائل والأنبياء والملوك الواردة في التوراة، أو في أشكال رسمها ونطقها وضبطها، وسيسعى لأن يبرهن على أن هذه الأسماء نفسها ترد في كتاب "صفة الجزيرة العربية" للحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (الذي حققه العلامة محمد بن علي الأكوع، وصدر في بغداد في سنة ١٩٨٩ عن دار الآفاق التابعة لدائرة الشؤون الثقافية العامة)، كما ترد في بعض قصائد الشعر العربي القديم، لدى وصفهما للسراة اليمنية وليس لبلاد عسير.[٣٦]

وعليه، يفترض الباحث العراقي أن بني إسرائيل كانوا شعباً يمنياً قديماً، من شعوب العرب البائدة، وأن التوراة كانت تسجيلاً لتجربة هذا الشعب وقصصه الدينية ومروياته القبائلية، يوم كان يعيش إلى الشرق من صنعاء في مخلاف، وهي مملكة صغيرة.[٣٧] ولتزكية افتراضه هذا، يوضّح "حقيقة" بعض الأسماء الواردة في التوراة، إذ يذكر، على سبيل المثال، أن هناك قرابة لغوية بين سبط بن يامن ـ بحسب الرسم العبري ـ وبنيامين ـ بحسب الرسم العربي ـ الذي يذكره سفر يشوع، وبين الاسم التاريخي للجماعة اليَمنية الأولى فهي من بني يامن. وهذا الاسم له صلة باسم مكان بعينه هو جبل يامن الذي وصفه الهمداني كما وصفه الشعر الجاهلي، ويقع في سرو حميَر قرب جبل صَبر؛ وأن اسم ها ـ يردن، الذيَ يُترجم تقليدياً إلى الأردن، هو اسم واد قديم من أودية اليمن أقامت فيه قبيلة عربية هي قبيلة "يرد"، واليمنيون يضيفون ـ حتى اليوم ـ حرف النون إلى الأسماء؛ وأن اسم صهيون عند العرب القدماء ذُكر في أشعارهم ومروياتهم بصفته حصناً جبلياً يمنياً في مكان يدعى بيت بوس، وأن الجليل الذي تصفه التوراة هو جليل يمني يقع على تخوم الحجان، ولا يمكن مطابقته مع الجليل الفلسطيني... إلخ.[٣٨]

ويؤكد الربيعي أن صورة داود التي رسمها ساردو النصوص التوراتية، "كانت مزيجاً من صور شعبية تتضمن شيئاً من التاريخ، وصور أبطال من أساطير شعوب أُخرى كانت رائجة وشائعة في

ثقافات العالم القديم." أمّا إمبراطورية داود المزعومة، فإنها إمبراطورية "يجهلها التاريخ المكتوب ولا تذكرها السجلات والنقوش المصرية والآشورية مجرد ذكر"، وهي بالتالي "اختراع غربي ينتسب بامتياز إلى عصر الاستعمار."[٣٩] فالواقع، أن "مملكة بني يهوذه" و"مملكة بني إسرائيل" كانتا ـ كما يتابع ـ من ضمن مجموعة "مخاليف"، وهي ممالك قبلية صغيرة كانت قائمة في اليمن قبل نشوء الدولة المركزية. وفي هذه المخاليف، كانت تعيش الجماعات القبلية المؤسسة، ومنها سبأ، والأملوك (أماليك الذين جرى تصويرهم خطأً، بسبب جهل محققي ومترجمي التوراة، على أنهم "العماليق"). واندحرت مملكة بني إسرائيل، وتمّ فعلياً القضاء عليها على يد سرجون الثاني ٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق. م. بينما قضى نبوخذ نصّر، في سنة ٥٨٧ ق. م. على مملكة بني يهوذه.[٤٠] وعليه، لم تتجه حملة نبوخذ نصّر إلى فلسطين قط، وإنما إلى السراة اليمنية لتأديب القبائل العربية البائدة. ومع أن السبي البابلي قد يكون "حادثاً تاريخياً"، إلاّ إنه لم يقع على أرض فلسطين، وإنما في نجران وعدن وصنعاء حيث تعرّض بنو إسرائيل للسبي بين قبائل عربية يمنية كثيرة.[٤١]

ويرى الربيعي في التوراة كتاباً دينياً ـ إخبارياً من كتب يهود اليمن، يتضمن التقاليد الأدبية والكتابية ذاتها التي عرفها العرب القدماء، وينتمي إلى الطفولة الدينية واللغوية للعرب اليمنيين، معتبراً أن كلاً من التوراة والنصوص اليمنية ـ العربية كانت تصدر "عن معرفة بجغرافية واحدة هي جنوب الجزيرة العربية، حيث ولدت اليهودية الأولى كدين عربي قديم، وليس عن فلسطين التي لم تتعرف إلى اليهودية أو القبائل اليمنية المهاجرة صوبها إلاّ في وقت متأخر للغاية قد لا يتعدى ٢٠٠ ق. م." أمّا موسى، فكان "شخصية يمنية عربية لا أحد يعلم مبلغ الصدق فيما وصلنا من القصص الكثيرة حولها." كما أن تلميذه يشوع، الذي وهب الأسباط أرض استقرارهم، "كان عربياً يمنياً كذلك، وحتى اليوم لا يزال اسمه في أنساب اليمنيين وأساطيرهم عن الآباء الأوائل."[٤٢]

IV ـ فراس السواح: "التاريخي واللاتاريخي في الحدث التوراتي في فلسطين"

خلافاً لكمال الصليبي الذي افترض أن التوراة جاءت من جزيرة العرب، ولفاضل الربيعي الذي افترض أن اليمن القديم هو أرض التوراة، يفترض فراس السواح، الباحث السوري المتخصص في الميثولوجيا والتاريخ وتاريخ الأديان، أن فلسطين هي أرض الحدث التوراتي، لكنه يميّز، ضمن هذا الحدث، بين التاريخي واللاتاريخي، أو بين الواقعي واللاواقعي، معتبراً، بالاستناد إلى أسفار التوراة، أن كثيراً من قصص التوراة تطبعت بطابع أسطوري أو ملحمي.

ويأخذ السواح على كمال الصليبي قيام منهجه "على القبول بالرواية التوراتية باعتبارها تاريخاً مؤكداً مسلماً بصحته، والشك في جغرافيتها"، وذلك خلافاً لمعظم الباحثين المعنيين الذين صاروا، في الأعوام الأخيرة، لا ينظرون إلى الرواية التاريخية التوراتية باعتبارها "تاريخاً حقيقياً غير خاضع للمناقشة أو النقد." كما يأخذ عليه تجاهله "كل نتائج علم الآثار في فلسطين وبلاد الشام"، واعتماده، في الأساس، على المقابلة بين أسماء الأماكن، حيث رسم الصليبي ـ كما يضيف الباحث السوري ـ "خارطة سياسية وبشرية فريدة من نوعها

لبلاد الشام وغرب العربية"، وذلك "بعد أن نقل مسرح الحدث التوراتي إلى غرب العربية"، الأمر الذي اضطره "إلى أن ينقل معه كل مواطن الشعوب [الموجودة] تاريخياً وآثارياً بأسمائها ومواطنها في منطقة مصر والهلال الخصيب، مثل الكنعانيين... وإيجاد مثائلها في غرب العربية."[٤٣]

ويتتبع الباحث السوري، على قاعدة التمييز الذي يقيمه بين التاريخي واللاتاريخي في الرواية التوراتية، القصة التوراتية وفق التحقيب الزمني المتعارف عليه، والمستمد من كتاب التوراة نفسه، والذي يقسم القصة إلى العصور التالية: ١ ـ عصر الآباء؛ ٢ ـ العبودية في مصر والخروج؛ ٣ ـ اقتحام كنعان؛ ٤ ـ عصر القضاة؛ ٥ ـ المملكة الموحدة؛ ٦ ـ المملكة المنقسمة. فيبدأ من سفر التكوين، ملاحظاً بداية أن أسلوب الجمَع التراثي الذي لجأ إليه محررو التوراة، كان بارزاً في هذا السفر الذي لا يوفر "أي مفتاح لحل مسألة تاريخانية عصر الآباء" الذي تدور أحداثه "حول مسائل عائلية وقبلية بحتة، معلقة في فضاء تاريخي كامل، ولا نجد فيها صدى للأحداث التاريخية التي حفل بها عصر البرونز الوسيط (١٩٥٠ ـ ١٦٠٠ ق. م)." ويخلص إلى أن نتائج البحث الأكاديمي، النصي والأركيولوجي، لسفر التكوين تدفع الباحث "إلى إسقاط عصر الآباء تماماً من مرتبة التاريخ، وجعله في زمرة الملاحم الشعبية والقصص البطولي المعروف في تراث كل الشعوب."[٤٤] أمّا قصة الخروج من مصر فهي، في شكلها ومضمونها، "من نوع الملاحم التي يدبجها عادة الخيال الشعبي عن البدايات التي تلامس عالم الأسطورة"، وهو ما يفسر فشل جميع الجهود التي بُذلت "من أجل إثبات تاريخية أحداث قصة الخروج وتحديد مساره"، إذ لا تذكر المصادر المصرية شيئاً "عن وجود الإسرائيليين في مصر، ولا عن خروجهم منها"، كما أن النص التوراتي نفسه "لا يورد أية معلومة عن الأوضاع في مصر والأحداث الجارية فيها"، والشيء نفسه ينطبق على القسم الثاني من أحداث الخروج "الذي يفترض وقوعه في مناطق شرق الأردن وسورية." ولهذه الاعتبارات كلها، يميل عدد كبير من المؤرخين إلى نفي هذه القصة "جملة وتفصيلاً".[٤٥]

ينتقل السواح بعد ذلك إلى تتبّع الرواية التوراتية كما وردت في عصر يشوع وعصر القضاة، في نهاية القرن الثالث عشر ومطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فيذكر أن محرري التوراة يقدمون نظريتين متناقضتين لتفسير أصول القبائل الإسرائيلية في أرض كنعان، وهما "نظرية الاقتحام العسكري الصاعق عبر نهر الأردن، والتي تقوم على أساس أحداث سفر يشوع، ونظرية التسلل السلمي التدريجي، التي تقوم على أساس أحداث سفر القضاة."[٤٦] فسفر يشوع يعتمد ـ كما يكتب السواح ـ "أسلوب السرد الملحمي الممزوج بعناصر قصصية خرافية"، ولا يقدم، من ناحية النقد التاريخي والأركيولوجي، "نقطة ارتكاز واحدة يمكن عندها تثبيت الإطار التاريخي ليشوع على الخلفية العامة لهذه الفترة... فالفلستيون غير مذكورين بتاتاً، ناهيك عن بقية شعوب البحر"، كما لا يذكر السفر "أي مدينة أو مملكة معروفة لدينا من تلك المدن والممالك المجاورة لفلسطين." وتبدو الشواهد الآثارية "أكثر تخييباً للآمال"، إذ لم يستطع علم الآثار "تقديم بيّنة واحدة من الفترة الانتقالية بين البرونز الأخير وعصر الحديد، تدل على حلول أقوام جديدة في فلسطين، حملت معها ثقافة مغايرة

للثقافة الكنعانية."[٤٧] أمّا سفر القضاة فيبدو للقارئ ـ كما يتابع السواح ـ "أكثر الأسفار التوراتية تفككاً وافتقاداً للحبكة الأدبية"، لأنه يتضمن "مجموعة أقاصيص غير مترابطة"، وكان معظمها، كما يبدو، "حكايا شعبية فلسطينية متداولة خلال العصر الفارسي."[٤٨]

ويستمر الباحث السوري في تتبع الرواية التوراتية كما وردت في سفر صموئيل الأول، وسفر صموئيل الثاني، وسفر الملوك الأول، والعصر الذهبي لمملكة سليمان، فيقدّر أن داود الذي يؤكد المؤرخون التوراتيون بناءه إمبراطورية كبيرة امتدت من الفرات إلى البحر المتوسط، "ليس في حقيقة الأمر إلاّ شبحاً تاريخياً"، تنتمي حروبه "إلى جنس الفولكلور الشعبي أكثر من انتمائها إلى جنس الكتابة التاريخية."[٤٩] أمّا القصص الواردة عن عصر سليمان فتمتلك "معظم العناصر التي تستخدمها قصص العصر الذهبي المعروفة في أساطير وخرافات الشعوب"، فضلاً عن أن التنقيبات الأثرية لم تعثر "على بنية واحدة من بنى أورشليم عاصمة مملكة سليمان، ولا تقدم أية فكرة عن مدينة العصر الذهبي وتراثها وعن قصور سليمان التي بناها له ولزوجاته"، كما لم يتم العثور "على حجر واحد من أساسات هيكل القرن العاشر قبل الميلاد، الذي بناه سليمان وفقاً للرواية التوراتية."[٥٠]

ويخلص الباحث السوري إلى أن الرواية التوراتية لم تدخل مسرح التاريخ إلاّ مع قيام مملكة إسرائيل، المعروفة بدولة السامرة، التي "أقامها الملك عمري عقب بنائه مدينة السامرة حوالي عام ٨٨٠ قبل الميلاد، التي صارت عاصمة لمنطقة الهضاب المركزية في فلسطين." وقد استمرت هذه الدولة أقل من قرنين من الزمان، إذ دمرها الآشوريون في سنة ٧٢١ ق. م. تقريباً، وسبوا أهلها إلى آشور. وهؤلاء المسبيون "لم يرجعوا قط إلى مواطنهم في فلسطين، بل ذابوا عرقياً بين الجماعات التي أقاموا بين ظهرانيها."[٥١] أمّا مملكة يهوذا، "فلم تكن قد تشكلت بعد حتى عام ٧٧٣ ق. م. ككيان سياسي واضح في فلسطين"، ولم تكن مدينة أورشليم، عاصمتها، قد دخلت معترك السياسة الإقليمية والدولية على حد سواء، إذ "لم تظهر أورشليم في النصوص الآشورية إلاّ بدءاً من الربع الأخير للقرن الثامن ق. م."[٥٢] ويؤكد السواح أن أصول سكان هاتين الدولتين تعود إلى "مصادر فلسطينية محلية متعددة وإلى المناطق الرعوية في البلاد المجاورة، إضافة إلى شرائح مقتلعة من مواطنها في حوض المتوسط." ولم تتعدَّ المساحة التي شغلتها كل من مملكتَي إسرائيل ويهوذا "المناطق الهضبية من فلسطين إلاّ في الأزمنة المتأخرة، وعلى شكل مد استعماري قصير الأجل." ولم تصمد الطبيعة الإثنية لكل منهما طويلاً "أمام التخريب الشامل للطابع الإثني لفلسطين نتيجة لسياسة الاقتلاع والتهجير الآشورية، ثم البابلية"، بحيث دخلت جميع مناطق فلسطين العصر الفارسي وقد "تغيرت بشكل جذري."[٥٣]

ويعتقد الباحث السوري أخيراً أن الدين اليهودي لم يتبلور إلاّ في العصر الفارسي، وتحديداً عندما تولّى المدعو عزرا الكاهن قيادة الموجة الثالثة من العائدين من السبي البابلي، وهو "يحمل سفر الشريعة، شريعة الملك، التي تلقاها الملك داريوس من إله السماء أهورامزدا"، ليطبقها في مقاطعة اليهودية "التي أنشأتها الإدارة الفارسية على جزء من أراضي مملكة يهوذا السابقة." وعمد الكاهن عزرا، الذي يمكن أن يدعى بحق "أبو اليهودية"، فيما بعد "إلى توسيع

وتطوير نواة هذه الشريعة بما يتلاءم مع التقاليد القديمة في المنطقة من جهة، ومع مستجدات حياة الجماعة." ثم جاء تلامذته من الكهنة في أورشليم، فتابعوا هذه المهمة و"أخذوا على عاتقهم فوق ذلك ابتكار أصول لهذه الشريعة تجعل منها تقليداً مترسخاً في المنطقة لا أمراً عارضاً مفروضاً عليها من الخارج؛ وهكذا، ابتدأ العمل في قصة إسرائيل التوراتية."[٥٤]

إشكالية أصل الفلسطينيين وتسميتهم

من أين جاء الفلسطينيون ومن أين جاءت تسميتهم؟

في الإجابة عن هذا السؤال، برزت وجهات نظر متعددة بين الباحثين المهتمين بدراسة تاريخ فلسطين القديم، وساهم في تعددها الافتقار إلى وثائق تاريخية توضح اسم "فلسطين" قبل الألف الثاني قبل الميلاد. فبحسب معاوية إبراهيم، عُرفت فلسطين منذ القرن الثامن عشر ق. م. بأرض كنعان. وغالباً ما يكون أصلها كلمة "فلستيا" التي ترد في السجلات الآشورية (٨٠٠ ق. م. تقريباً). وترتكز صيغة التسمية عند المؤرخ الإغريقي هيرودوت، في القرن الخامس قبل الميلاد ـ كما يتابع إبراهيم ـ على أسس آرامية، أي "بالستاين"، ونجد عنده أحياناً أنه مكان يُطلق على الجزء الجنوبي من سورية. وأصبح اسم فلسطين في العهد الروماني ينطبق على جميع الأرض المقدسة، وغدا مصطلحاً رسمياً منذ عهد هدريان. أمّا في العهد الإسلامي، فإن فلسطين كانت جزءاً من بلاد الشام.[٥٥]

ويتابع الباحث نفسه فيذكر أن "الفلستينيين" الذين ورد ذكرهم في عدد من المصادر المصرية وفي السجلات الآشورية، سكنوا فلسطين في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، وكان هناك مَن يعتبرهم "مجموعة من شعوب البحر، بينما هناك مَن يعتبرهم سكان فلسطين أصلاً وامتزجوا بشعوب البحر الذين أثّروا في حضارتهم." واعتبر "الفلستينيون" أنفسهم "خلفاء شرعيين للسلطة المصرية على فلسطين وسيطروا على معظم أجزائها، ولكنه غالباً ما يشار إليهم على أنهم سكان الساحل الفلسطيني حيث أسسوا عدداً من المدن الرئيسية مثل غزة وعسقلان وأسدود." وظهرت التأثيرات الكنعانية المحلية على مخلفاتهم "من خلال أسماء آلهتهم ومن خلال عمارتهم وحياتهم الدينية."[٥٦]

وجهتا نظر رئيسيتان

يمكننا إجمال الآراء المتعددة بشأن أصل الفلسطينيين وأصل تسميتهم ضمن وجهتَي نظر رئيسيتين:

I ـ شعب من شعوب بحر إيجه استوطن في بعض مناطق فلسطين

كان المؤرخ المعروف فيليب حتّي، الذي استند إلى الرواية التاريخية التوراتية، قد اعتبر أن الفلسطينيين، وهم "من المجموعات الخمس لشعوب البحر الذين أتوا من منطقة بحر إيجة، كانوا من أقوى المنافسين الذين كان على العبرانيين أن يقاتلوهم لامتلاك البلاد." فبعد أن فتح العبرانيون المرتفعات الوسطى بقليل، "سيطر الفلسطينيون على البلاد الساحلية الممتدة من غزة حتى جنوبي يافا، وأهم المدن التي استوطنوها كانت غزة وعسقلان وأشدود [أسدود] وعقرون وجتّ، وكان الكرمل الحد الفاصل بين بلادهم الساحلية وبين بلاد الفينيقيين في الشمال." وكسر الفلسطينيون العبرانيين

في سنة ١٠٥٠ ق. م. تقريباً، و"أخذوا منهم تابوت العهد وحملوه إلى أشدود [أسدود]، وكانوا متسلطين في عهد الملك شاول (الذي توفي نحو ١٠٤٠ ق.م.) على مدن بعيدة في الداخل مثل بيت شان." واستطاع الفلسطينيون التفوق على أعدائهم ـ كما يضيف حتّي ـ بفضل "تفوق سلاحهم الذي كان مصدره معرفة الصهر واستخدام الحديد"، لكنهم أخذوا يتجهون نحو الزوال كشعب "في نهاية حكم داود... ومع الزمن تأثروا بالساميين واندمجوا بهم ولم يتركوا إلاّ اليسير لمعرفة لغتهم وديانتهم وعمارتهم وسائر مظاهر حضارتهم."٥٧

وفي الاتجاه نفسه تقريباً، رأت المؤرخة الفلسطينية بيان نويهض الحوت أن زحف القبائل الهندو ـ أوروبية على بلاد اليونان، في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، دفع سكانه الإيجيين إلى الفرار بحراً، ووصلوا إلى سواحل مصر وسورية. وكان الفلسطينيون (أو الفلسطيّون) "بين هؤلاء الذين جاؤوا من جزيرة كريت، وكان دخولهم أرض كنعان متزامناً مع دخول قوم موسى، واستطاع الفلسطينيون أن يتغلبوا على الكنعانيين ويستولوا على مدن الساحل، وكانت أهم مدنهم خمساً: غزة، وعسقلان، وأسدود، وعقرون، وجتّ." وبعد أن تشير الباحثة نفسها إلى أن أبرز ما تميز به تاريخ الفلسطيين هو "سلسلة الحروب التي خاضوها مع بني إسرائيل"، تقدّر أنهم تأثروا، على الرغم من عزلتهم، بكثير من التقاليد الكنعانية، وأنه "لم يبقَ من تاريخهم سوى الاسم الذي أُطلق على معظم الأراضي التي عُرفت في فجر الحضارة بأرض كنعان: فلسطين."٥٨

وبحسب الباحث السوري فراس السواح، فإن فريقاً من شعوب البحر، والذي "قدم من كريت وجزر بحر إيجه، قد توطن، في مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، في ساحل فلسطين الجنوبي، وهي المنطقة التي تدعوها الأسفار التوراتية بأرض الفلسطينيين، وتدعوها الوثائق الآشورية بـ 'فلستيا'، وعُرفوا باسم 'البيليست' في النصوص المصرية." غير أن هؤلاء المستوطنين على الساحل الفلسطيني، "لم يحافظوا على تكوين عرقي وثقافي مدة طويلة، وبقيت المدن الفلسطينية مدناً كنعانية قلباً وقالباً."٥٩

بيد أن الباحث المصري خالد الدسوقي لا يكتفي، في كتابه: "دراسات في شعوب الشرق القديم"، بتبني الرأي القائل إن الفلسطينيين قدموا إلى فلسطين من جزيرة كريت، لكن "من دون أن يُعرف موطنهم الأصلي قبل وصولهم إلى كريت"، بل يسعى أيضاً للتعريف بحضارتهم بعد أن "استقروا على السهل الساحلي بين يافا والمنطقة الصحراوية جنوب غزة، بعد نزول الإسرائيليين مباشرة أرض فلسطين"، وأصبحوا "الفئة الحاكمة في خمس مدن كنعانية قديمة هي غزة وأشدود [أسدود] وعسقلان وعكرون وجات [عقرون وجتّ]."٦٠ ففي القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد، امتدت أنشطتهم شمالاً وشرقاً، و"وصلوا إلى ذروة قوتهم ونفوذهم، بينما كان النفوذ المصري في سورية ـ فلسطين في تدهور بعد رمسيس الثالث حتى تلاشى نهائياً بعد رمسيس السادس." ويحتمل أن المدن الفلسطينية الساحلية في تلك المرحلة أصبحت "منافساً خطيراً في التجارة البحرية للمراكز الكنعانية في صور وصيدا وببلوص [بيبلوس]." ولا أدلّ على نشاط الفلسطينيين في التجارة البحرية "من ذلك الفخار الذي اكتُشف في البحر تجاه

عسقلان وأشدود [أسدود]، هذا بالإضافة إلى ما اشتهر به الفلسطينيون من إنشاء الطرق التي استُخدمت في ربط المدن."[٦١]

وبعد أن يعرض الباحث نفسه وقائع الحرب الطويلة التي دارت "بين الفلسطينيين والعبريين منذ سنة ١١٠٠ ق.م."، يُقدّر أن الحكام الفلسطينيين صاروا "يتخذون، في الألف الأول قبل الميلاد، أسماء سامية بصورة متزايدة، مثل خانون وسيل ـ بل وصيدقي واخي ـ ميلكي." كما أن آلهتهم ـ كما يُرَجِّح الكاتب ـ حملت أسماء سامية، مثل "إله القمح داجان والآلهة الكنعانية عشتروت وبعل ـ زبزب"، وكانت دياناتهم، على الأغلب، مزيجاً من الأفكار الدينية الكنعانية ومن التراث الديني الخاص بهم. وكان لإلههم داجان "معبد في غزة، يقوم أسياد المدن الفلسطينية بتقديم الأضاحي له، كما كان يوجد معبد آخر لداجان في أشدود [أسدود]." واستخدم الفلسطينيون "التوابيت الفخارية" لوضع أجساد موتاهم فيها، ولم تختلف عاداتهم الجنائزية بشكل ملحوظ "عن عادات الشعوب السامية المعاصرة لهم خاصة فيما يتعلق ببناء المقابر الجماعية وما كان يوضع فيها من أثاث جنازي وغير ذلك." وكشفت التنقيبات الحديثة في أشدود [أسدود] "عن بقايا قلعة ضخمة من اللبن متصلة بسور المدينة"، كما عرف الفلسطينيون "نظام الأسوار المزدوجة التي تحتوي على مخازن فيما بينها، وهو النظام الذي أخذه عنهم العبريون." ويُعتبر الفخار الفلسطيني "الذي تحلّي سطوحه الصور والرسوم من أهم ما يميز الصناعات الفلسطينية"، وبين أسلحتهم "الخوذات والدروع، التي احتكروا صناعتها لمعرفتهم بصناعة الحديد."[٦٢]

ويضيف الدسوقي أن السلطة في مدن الفلسطينيين الخمس الرئيسية كانت في يد خمسة من "الأسياد" يحمل كل منهم لقب "سرن"، وكان يخضع لهم "الأمراء" أو "القواد"، ويأتي بعدهم بقية الشعب "من الكنعانيين والذين ينحدرون من سلالة الغزاة الفاتحين." ويبدو أن هذه المدن كانت تكوّن اتحاداً، "حيث السيادة السياسية كانت لمدينة غزة، بينما أشدود [أسدود] كانت المركز الديني." ومع أن الفلسطينيين تأثروا بحضارة من جاورهم من الشعوب، غير أن "فلسطيا" احتفظت "بروح من الاستقلال، وبقيت آثار شخصيتها المستقلة حتى العصر الهلينستي"، علماً بأنها "قد اختفت في حدود عام ٦٠٤ ق.م. حينما حاولت عسقلان مقاومة جيش الإمبراطورية البابلية الحديثة، فأخضعها نبوخذ رزار الثاني، وكان ذلك آخر ما عُرف عن فلسطيا ككيان قائم قبل غروب شمسها كوحدة سياسية."[٦٣]

II ـ أصل الفلسطينيين في غرب الجزيرة العربية أو في اليمن

في كتابه: "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، يؤكد كمال الصليبي أن اليهود لم يكونوا أول مَن استوطن فلسطين قادمين من غرب شبه الجزيرة العربية، وإنما هناك "الفلسطينيون" (أي الفلستيّون) الذين "وصلوا، ولا شك، من غرب شبه الجزيرة العربية قبلهم، فصارت البلاد تُعرف باسمهم." كما نزح الكنعانيون من غرب شبه الجزيرة العربية في زمن مبكر، عندما "تفرقت قبائلهم في الأرجاء، ليعطوا اسمهم لأرض كنعان (كنعن) على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين، في المنطقة التي سمّاها الإغريق فينيقيا (على اسم الفنيقا في عسير)."[٦٤] ويتابع الصليبي أن الفلستيين أطلقوا، كما يبدو، "على عدد من مستوطناتهم (مثل غزة وعسقلان) أسماء

هي في الأصل أسماء لأماكن في غرب شبه الجزيرة العربية، كما أعطى الكنعانيون أيضاً، في شمال فلسطين، أسماء من غرب شبه الجزيرة العربية لبعض مستوطناتهم، وهي أسماء مثل صور وصيدون وجبيل وأرواد." وعندما بدأ إسرائيليو غرب شبه الجزيرة العربية بالهجرة في اتجاه الشمال للاستيطان في فلسطين، "كائناً ما كان زمن الهجرة"، أطلقوا بدورهم أيضاً "أسماء من غرب شبه الجزيرة العربية على مستوطناتهم الفلسطينية، أو على أوابد دينية محلية استولوا عليها وعرّفوها بأوابد يهودية في غرب شبه الجزيرة العربية، وهي أسماء مثل يهوده، ويروشليم، وبيت لحم، وحبرون، وشمرون، وتعريبها السامرة."[٦٥] وفي كتابه الآخر: "حروب داوود"، يذكر كمال الصليبي أنه كان للملك شاول طوال سني ملكه حروب مع الفَلَسَة (بالعبرية التوراتية "ه ـ فلشتيم"، وهي صيغة جمع النسبة من "فلشت")، وهؤلاء شعب "كان ينافس بني إسرائيل آنذاك على السيطرة، وكانوا يتكلمون اللغة نفسها التي كان يتكلمها بنو إسرائيل، لكنهم كانوا من عبدة الأصنام."[٦٦]

أمّا فاضل الربيعي فيرى أنه كان هناك، منذ البداية، محاولة "لترويج أصل غريب (جذر إثني) للفلسطينيين، يمكن بواسطته البرهنة على أن هذا الشعب الطارئ أقام، عن طريق التسلل من البحر، في الوطن التاريخي لليهود"، معتبراً أن نظرية الأصول الإغريقية للفلسطينيين "لا أساس لها سوى ورود كلمة كرتي ـ كرت في التوراة." وفي ردّه على هذه المحاولة، يؤكد الباحث العراقي "أن سكان أرض الفلس، إرص ـ ها ـ فلشتيم، يُقصد بهم جماعة كانت تقيم قرب وادي ـ جبل أوبن آل العيزار، إبن ـ ها ـ عيزر، وأنها عُرفت باسم معبودها الإله الفَلَس، الذي كان معبود قبيلة طي اليمنية كذلك."[٦٧] أمّا كلمة "كرت" العبرية فهي "لا تعني جزيرة كريت، بل هي كرث. وكان من أشهر وديان اليمن القديم وادي كراث على مقربة من سلسلة جبال هنوم، لكنه زال عن الوجود." كما كان هناك قبيلة يمنية "تنتسب إلى كرث بن هنوم، كانت تقيم على مقربة من مدينة صور غير بعيد عن ساحل البحر الأحمر."[٦٨] وفي دحضه للرواية التوراتية التي تشير إلى أن بني إسرائيل اصطدموا بجماعة تُدعى "الفلستيين"، يؤكد الربيعي أن المعارك التي دارت بين بني إسرائيل والفلستيين (ها ـ فلشتيم) "لم تنشب في فلسطين، بل دارت في هذا الفضاء الجغرافي الذي كان موطن قبائل وثنية كانت على موعد مع فجر ديانة عربية توحيدية."[٦٩]

إشكالية شحّ المعلومات عن العهد الفارسي واختلافها

تظل المعلومات عن السياسة التي اتّبعها الفرس في فلسطين، في الفترة الممتدة من سنة ٥٣٩ قبل الميلاد حتى سنة ٣٣٣ قبل الميلاد، شحيحة، وذلك "على الرغم من وجود المصادر الكلاسيكية المتعلقة بتاريخ المنطقة، مثل أعمال هيرودوتس (القرن الخامس ق. م.)، ووجود بعض النقوش والكتابات القصيرة من القرنين السادس والخامس ق. م. التي وُجدت في مناطق مختلفة من بلاد الشام."[٧٠]

وبسبب شحّ هذه المعلومات، برز اختلاف بين الباحثين المعنيين لدى تطرقهم إلى سياسة الفرس في فلسطين. فبينما قدّر نقولا زيادة أن الفرس "أطلقوا على منطقة القدس اسم اليهودية، وأعادوا إليها جماعة من يهود السبي البابلي"،[٧١] أكد الباحث الفلسطيني زياد منى غياب أي وثائق ـ باستثناء كتابات بعض العلماء

التوراتيين ـ تثبت "وجود مقاطعة يهوذا (يهد) في فلسطين إبان الحكم الفارسي للإقليم"، مضيفاً أن المرجع الوحيد المزامن للتقسيمات الإدارية للإمبراطورية الفارسية، أي هيرودوتس، "لم يشر لا إلى إقليم يهد ولا إلى يهوذا أو إسرائيل."[٧٢] أمّا فيليب حتّي، فذكر أن الفرس احتلوا، بعد نجاحهم في القضاء على الدولة البابلية في سنة ٥٣٩ ق. م. بلاد الشام، وجعلوها مقاطعتهم الخامسة وضموا إليها قبرص. وكان داريوس الأول (٥٢٦ ـ ٤٨٦ ق.م.) قد "قسّم البلاد إلى ثلاث وعشرين مقاطعة تسمى مرزبانة، يحكم كل منها حاكم يدعى مرزبان." وكان هذا الأخير "حاكماً مدنياً وليس عسكرياً، ويقوم إلى جانبه قائد وأمين سر مستقل كل منهما عن الآخر ويتصلان بالعاصمة مباشرة." وفرض داريوس الأول على كل "مرزبانة" حصة معينة من "الجزية" تدفعها إلى الخزينة الملكية.[٧٣] ويتابع حتّي أن الفاتح الفارسي "قورش" وجد، بعد دخوله بابل، جالية يهودية "يعود أصلها إلى سبي نبوخذ نصر"، فسارع إلى "إصدار مرسوم يخوّل الذين يودون الرجوع من أفرادها إلى فلسطين"، مقدّراً أن اليهود تمتعوا، في ظل الحكم الفارسي، "بامتياز الحكم الذاتي، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الآرامية في حين ظلت اللغة العبرية تُستخدم كلغة دينية."[٧٤]

إشكالية أصل المكابيين و"الدولة اليهودية"

في سنة ٣٣٤ ق. م. اجتاز الإسكندر المقدوني البحر من اليونان إلى آسيا الصغرى، وانتصر على ملك الفرس دارا الثالث في إيسوس في كيليكيا، ودمّر غزة في خريف سنة ٣٣٢ ق. م. أمّا مصر، فقد تسلّمها سلماً، وعاد إلى بلاد الشام حيث أعدّ حملته نحو فارس وأواسط آسيا وحوض السند، ثم رجع إلى بابل، بعد احتلال تلك المناطق، حيث توفي هناك في سنة ٣٢٣ ق. م. وقامت بعد وفاة الإسكندر حروب بين خلفائه، كانت نتيجتها الفعلية تجزئة الإمبراطورية، فتولّى سلوقس الأجزاء الآسيوية، بينما احتفظ بطليموس بولاية مصر.[٧٥]

ويتفق معظم الباحثين الذين عالجوا تاريخ فلسطين في القرن الثاني قبل الميلاد ـ وأتيحت لي فرصة الاطّلاع على كتاباتهم ـ على أن فلسطين شهدت في سنة ١٦٧ ق. م. ثورة ضد الحكم السلوقي قادتها الأسرة "الحمشونية" بقيادة "متتيا" الأب، من قرية مودين، والتي يرجح أن تكون "مدين" (إلى الشمال الغربي من القدس). وخلف "متتيا"، على رأس حركة التمرد، ابنه يهوذا الذي كان يلقب "بالمكابي" (ومعناه المطرقة)، واستمرت هذه الحركة في دورها الأول (١٦٧ ـ ١٤٢ ق.م.) بين كر وفر، إلى أن تمكن "سمعان" المكابي في سنة ١٤٢ ق. م. وهو الابن الثالث لمتتيا (الذي تولّى الحكم بعد مقتل يهوذا ويوناثان)، من تأسيس "دولة يهودية"، سيطرت على أجزاء واسعة من فلسطين، وراحت ترغم السكان على اعتناق الدين اليهودي، وتفرض الختان على الرجال. وانتهى وجود هذه الدولة في سنة ٦٣ ق. م. على يد الرومان الذين جعلوا فلسطين آنذاك جزءاً من الدولة الرومانية، شأنها في ذلك شأن جميع بلاد الشام.[٧٦]

ولدى عرضه قصة المكابيين، يذكر فراس السواح أن اليهود ظلوا يعيشون في عزلتهم تحت الحكم الفارسي، فالبطلمي، فالسلوقي، حتى سنة ١٤٢ قبل الميلاد، وذلك "عندما استغل سمعان المكابي تفكك الدولة السلوقية فأعلن استقلال أورشليم، وأنشأ دويلة يحكمها الكاهن

الأعلى." وتحولت هذه الدولة، في عهد خلفاء سمعان، "إلى مملكة، وتوسعت على شكل مد استعماري شمل كامل فلسطين وشرق الأردن، وتميز بالعنف والإرهاب وتهويد السكان بقوة السلاح." ودامت دولة المكابيين حتى استيلاء الرومان على سورية ودخولهم أورشليم في سنة ٦٣ قبل الميلاد، حيث "تم تجريد أورشليم من كل ما استولت عليه بالقوة، وإعادتها مقاطعة رومانية ضمن مساحتها التقليدية السابقة." وعليه، فقد دامت دولة اليهود في فلسطين مدة ثمانين سنة، وذلك من سنة ١٤٢ ق.م. إلى سنة ٦٣ ق.م. وهي "الفترة الوحيدة التي كان لليهود فيها كيان سياسي على جانب من الأهمية." وفيما عدا الفترة المعترضة التي أعطى خلالها الرومان حكم فلسطين وسورية الجنوبية للملك هيرود العربي (٣٨ ـ ٤ ق.م.)، فقد "استمرت 'اليهودية' مقاطعة رومانية صغيرة، ولكن مزدهرة اقتصادياً."[٧٧]

بيد أن فاضل الربيعي يخالف العديد من المؤرخين العرب الذين أدرجوا أحداث رواية ما يدعى "سفر المكابيين" ضمن تاريخ فلسطين، مؤكداً أنه يجب "أن نشطب من التاريخ الفلسطيني عصراً بأكمله نُسب إلى فلسطين خطأ، بل وأن نشطب كل ما له صلة بحروب يهوذه المكابي من تاريخ بني إسرائيل في فلسطين الخيالية، وأن نعيد وضعه بكل أمانة ضمن تاريخ اليمن والجزيرة العربية."[٧٨]

فخلافاً للرواية التوراتية التي يُفترض أن أحداثها تدور في فلسطين، يضع الباحث العراقي الرواية ضمن ما يسميه التاريخ "الحقيقي"، وهو "تاريخ الحملات الحربية اليونانية ـ الرومانية ثم البيزنطية على الجزيرة العربية واليمن، وعلى ساحل البحر الأحمر لإخضاعه والسيطرة عليه." ولتزكية رأيه هذا، يستشهد بوصف الهمداني الذي "ميّز بين فلسطين وبلاد اليهودية" التي دارت فيها أحداث "سفر المكابيين"، كما يستشهد بابن العبري [ولد في سنة ١٢٢٦م] في كتابه: "تاريخ مختصر الدول" الذي أشار "إلى أن القائد الروماني بطليموس أفيفانوس، وبعد الانتصار في مصر، جهّز حملتين حربيتين سارتا نحو بلاد الشام وبلاد اليهودية لإخضاعهما"، وذكر "يهوذا المقبي" الذي "ولي أمر اليهود وجمع بين الملك والكهنوت."[٧٩] ويخلص الربيعي إلى أن بلاد اليهودية العتيقة التي دارت فيها أحداث سفر المكابيين، "ليست أرض فلسطين، كما أنها ليست أرض سورية ـ بلاد الشام"، وإنما هي مكان آخر "في سرو حمير (الجنوب الغربي من الجزيرة العربية)". وقد اندثرت هذه البلاد، بعد جميع الحروب المدمرة التي عرفتها، واضطرت القبائل العربية العاربة التي كانت تسكنها، "وبعضها كان على دين اليهودية ثم النصرانية"، إلى الهجرة "نحو حاضرة الإمبراطورية الرومانية آنذاك: بلاد الشام"، وذلك "في حدود ١٣٠ ق.م. وليس قبل ذلك." وفي جنوب بلاد الشام، أي في فلسطين، "استعادت هذه القبائل ذكرياتها في صورة أسماء قديمة للمواضع التي تركتها مرغمة."[٨٠]

صعوبة البحث في تاريخ القدس القديم

يُجمع الباحثون المعنيون بتاريخ القدس القديم على أن هناك صعوبات عديدة تواجههم، ناجمة أساساً عن وجود "ثغرات كثيرة في تاريخ المدينة المقدسة لا بد من تجسيرها، وهناك نقاط غامضة كثيرة وحشد من المشكلات المتعلقة بالحقائق التاريخية ينبغي توضيحها وحلها." ومن ناحية أُخرى، تواجه الباحث في تاريخ

القدس القديم مسألة الالتزام بالموضوعية في سرد الأحداث التاريخية وتحليلها، وهي "صعوبة طبيعية في حالة مدينة مقدسة لها مكانة القدس حيث تتلاقى مطالب أتباع ثلاث ديانات عالمية: المسيحية والإسلام واليهودية وتتصادم."[٨١]

ويلاحظ غلبة الطابع الديني، والنظرة المثالية، على عدد كبير من الأبحاث والدراسات العربية التي تناولت تاريخ القدس القديم. ففي تمهيد خالد العك لكتابه: "تاريخ القدس العربي القديم"، يرى أن مدينة القدس دخلت التاريخ "من أوسع أبوابه"، كونها شهدت "ثلاثة أحداث" مهمة هي: "حين اختار الله تبارك وتعالى القدس مهداً للإسراء وقاعدة للمعراج"، وحين تمّ "فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب"، وعندما تمّ "الفتح العظيم الذي تحقق فيه تحرير القدس من براثن الصليبيين المعتدين."[٨٢] ويعتبر، في الفصل الأول من كتابه، أن القدس الشريف نشأ "بإرادة سماوية ربانية"، وأن الباحثين "لم يستطيعوا أن يقطعوا بمبدأ تاريخ نشأة القدس... وكل ما أثبتوه أن القدس قديم بنشأته"، بينما "حكى أهل التاريخ أن آدم عليه السلام شارك في عمارة القدس، ثم من بعده نوح عليه السلام بعد الطوفان الذي عمّ الأرض في زمنه، ثم من بعده يعقوب عليه السلام"، الأمر الذي يدل "على أن بناء القدس وبيت المقدس الذي هو المسجد الأقصى كان بوحي من الله تبارك وتعالى."[٨٣] أمّا رجا عرابي الذي ينطلق، في كتابه: "الكافي في تاريخ القدس: دراسة حول تاريخ القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر"، من أن الاكتشافات الآثارية المتعاقبة أخذت "تدحض النظريات القائلة بالاعتماد على التوراة في تاريخ المنطقة القديم، وخاصة تاريخ فلسطين والقدس"، فهو يعتبر أن القرآن الكريم، وعلى الرغم من كونه "كتاب دين وعقيدة وتوحيد" وليس "كتاباً تاريخياً"، يبقى "المصدر المهم والموثوق به في تاريخ اليهود"، ويظل "المصدر الأساس" لدى دراسة تاريخ القدس خاصة، وتاريخ فلسطين عامة.[٨٤]

وبعيداً عن هذه النظرة المثالية، يبرز اختلاف واضح بين الباحثين بشأن تاريخ ظهور مدينة القدس، وبشأن موقعها الجغرافي.

ففيما يتعلق بتاريخ ظهور المدينة، يؤكد بعض الباحثين، ومنهم خزعل الماجدي، أن مدينة القدس كانت قائمة منذ بدايات العصر البرونزي الذي شهد ظهور "ثلاث" مدن متتالية للقدس "حملت كل واحدة منها اسماً مختلفاً". ففي العصر البرونزي المبكر (٣٣٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م.)، ظهرت المدينة الأولى على يد الأموريين، ثم ظهرت مدينة القدس الثانية، في العصر البرونزي الأوسط (٢٠٠٠ ـ ١٥٥٠ ق. م.)، على يد الكنعانيين، بينما ظهرت مدينة القدس الثالثة في العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠ ـ ١٢٠٠ ق. م.) على يد اليبوسيين. وكان لكل مدينة "أحداثها وعمرانها رغم الإيقاع المنسجم بين هذه المدن الثلاث والتداخل الكبير في عمرانها وآثارها."[٨٥]

ولا يرجح باحثون آخرون، ومنهم كامل جميل العسلي، أن تكون مدينة القدس قد وُجدت في الألف الثالث قبل الميلاد، معتبراً أن المعلومات التاريخية الحقيقية المتوافرة بشأن المراحل المبكرة من حياة مدينة القدس تظل "ضئيلة للغاية"، إذ "ترجع معظم المعلومات حول أقدم تاريخ للمدينة إلى عصور لاحقة." فالمستوطنة التي برزت في العصر البرونزي "أُعطيت منزلة رفيعة

كسلف للمدينة المقدسة في تاريخ متأخر كثيراً"، كما أن جميع المعلومات القديمة المكتوبة عن القدس في العصر البرونزي هي "معلومات ذات طبيعة أدبية في الدرجة الأولى."[٨٦] وبحسب الباحث نفسه، فإن اسم "أورسالم" لم يظهر لأول مرة إلاّ في الألواح التي عُرفت بـ "نصوص اللعنة" التي تُنسب عادة إلى فترة حكم سيزو ستريس الثالث (١٨٧٩ ـ ١٨٤٢ ق. م.)، كما ورد اسم "أورسالم" في نصوص "رسائل العمارنة" التي تُنسب عادة إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والتي تضمنت ست رسائل كتبها الملك "عبدي هيبا" ملك أورسالم إلى فرعون مصر "أمنحوتب الرابع".[٨٧]

ويقدّر فراس السواح، من جهته، أن أورشليم اليبوسية لم تكن، وفقاً للنتائج التي توصل إليها علم الآثار، "سوى بلدة صغيرة مسوّرة، لم يكن لها من القدم والعراقة في التاريخ ما لمواقع فلسطينية أُخرى مثل أريحا، ولا ضخامة وأهمية مواقع مثل مجدّو." وهي بقيت محصورة "ضمن مساحتها الضيقة على ذروة هضبة أوفيل منذ نشأتها كمدينة مسوّرة حوالي عام ١٨٠٠ ق. م. وحتى نهايات القرن التاسع قبل الميلاد."[٨٨] ولم تتحول أورشليم إلى عاصمة إقليمية إلاّ بعد قيام مملكة يهوذا، في حدود سنة ٧٧٣ ق. م. والتي ارتبط قيامها وازدهارها "بتزايد أهمية مدينة أورشليم، من الناحيتين السياسية والتجارية"، التي "أخذت تبسط سلطتها السياسية على قرى منطقة يهوذا، التي لم تخضع حتى ذلك الوقت إلى سلطة مركزية." وتمتعت أورشليم بهذا الدور "بفضل الدعم الذي تلقته من آشور مكافأة لها على عمالة ملوكها وعونها لهم على دمشق والسامرة."[٨٩]

وبشأن موقع القدس، فإن كمال الصليبي يفترض أن الملك سليمان (٩٦٢ ـ ٩٢٥ ق.م. تقريباً)، هو الذي قام بنقل عاصمة والده الملك داود من "صيون"، وهي "المكان المعروف اليوم بقعوة صيان، في منطقة رجال ألمع من تهامة عسير"، إلى "يروشلم" التي تقع "في جوار ما هو اليوم بلدة النماص، في منطقة بني شِهر من سراة رجال الحجر"، ثم قام "بتشييد هيكل يليق بكبير الآلَهة في العاصمة الجديدة وجيء بتابوت العهد من قعوة صيان، فوُضع في قدس أقداس الهيكل الجديد الذي هدمه نبوخذ نصر."[٩٠] ويرجح الباحث اللبناني أن اليونان ومن بعدهم الرومان صاروا "يطلقون اسم اليهودية على جزء من فلسطين"، بعد دخول المذهب اليهودي إليها "مع هجرات إسرائيليي غرب شبه الجزيرة العربية باتجاه الشمال"، وأن اليهود أطلقوا اسم "يروشلم"، في هذا الجزء من فلسطين، "على بلدة كانت تدعى بالأصل إيليا." وبعد ذلك، صار اليهود وغيرهم من الطوائف الموسوية "يطلقون أسماء توراتية على مواقع أُخرى في فلسطين حيث استوطنوا."[٩١]

بيد أن فاضل الربيعي يقدّر أن أورشليم التي سقطت في يد الملك داود ـ بحسب التوراة ـ "ليست القدس العربية، وفوق ذلك ليست في فلسطين التاريخية"، بل هي "أورشليم (أورسالم) السراة اليمنية كما وصفها الهمداني والشعر الجاهلي." ومن جهة أُخرى، فإن التوراة لا تصف قدساً واحدة، بل "ثلاثة أماكن كل منها يدعى قدس. وليس ثمة مكان على وجه الأرض فيه ثلاثة أماكن يدعى كل منها قدس، سوى أرض اليمن التي وصفها الهمداني."[٩٢] فبحسب الرواية التوراتية، سقطت أورشليم في يد داود الملك "بعد أن استولى على مدينة جبلية بالقرب منها وتقع في عزلة جبلية

حصينة تدعى بيت بوس"، وأن داود قرر، بعد انتصاره، أن "يطلق اسمه على حصن المدينة الذي كان يدعى صهيون ليصبح مدينة داود." لكن القدس العربية. كما يؤكد الباحث العراقي ـ "لا تقع قرب جبل صهيون ـ صيون"، والذي هو "حصن منيع بالفعل، يصل سلسلة جبال السرّ بنجران في سَرو حمير إلى الشرق من صنعاء." كما لا توجد في الواقع مدينة فلسطينية قديمة قرب القدس العربية تدعى "بيت بوس"، والتي يُفهم من وصف الهمداني "أنها مكان جبلي في منطقة الجوف على الطريق المؤدي إلى صنعاء."[٩٣] ويبدو أن اسم أورشليم القديمة انتقل، في مرحلة لاحقة، إلى فلسطين سوية مع أسماء لا حصر لها "مع هجرات القبائل من الجزيرة العربية واليمن إلى بلاد الشام" التي جرت "في حدود ١٣٠ ق.م. وليس قبل ذلك."[٩٤]

استخلاصات

لقد حاولت في هذه الدراسة، وأنا غير المتخصص بالتاريخ القديم، أن أعرض الإشكاليات التي واجهها الباحثون العرب المتخصصون بهذا الحقل لدى دراستهم تاريخ فلسطين القديم، إذ تمثّل دراستي هذه جزءاً من بحث موسع أشتغل عليه منذ فترة ـ وآمل بأن أنجح في إنجازه ـ عن "فلسطين في الكتابة التاريخية العربية"، وهو بحث سيتناول دراسات عدد من الباحثين العرب الذين قاربوا تاريخ فلسطين في عصوره المختلفة: القديم، والإسلامي، والعثماني، والمعاصر، وسيركّز، بصورة خاصة، على الإشكاليات التي واجهها هؤلاء الباحثون وعلى المصادر والمراجع التي اعتمدوها.

وسأختم هذه الدراسة بالاستخلاصات الأربعة التالية:

١ ـ إن مساهمة الباحثين العرب في دراسة تاريخ فلسطين القديم مساهمة حديثة ولا تزال محدودة، ولعل السبب في هذا يعود إلى ضعف مشاركة هؤلاء الباحثين، وخصوصاً مَن تخصص منهم بعلم الآثار، في عمليات التنقيب والكشف الأثرية. وكما يذكر معاوية إبراهيم، فإنه لم يكن بين العرب سوى قلة قليلة اهتمت بالآثار الفلسطينية، وبقيت دائرة الآثار التي تأسست في فلسطين في سنة ١٩٢٣ تدار من قبل الإنجليز حتى سنة ١٩٥٦. ولدى تأسيس الجامعة الأردنية في سنة ١٩٦٢، أقيم قسم للتاريخ والآثار، ثم تأسس، في سنة ١٩٨٤، معهد للآثار والأنثروبولوجيا في جامعة اليرموك. أمّا في سورية، فقد تمّ افتتاح معهد الآثار والتراث الفلسطيني في سنة ١٩٨٢ في دمشق، بمبادرة من المؤرخ وعالم الآثار الفلسطيني شوقي شعث. وأصبحت مهمة علماء الآثار العرب أصعب كثيراً بعد قيام إسرائيل، في سنة ١٩٦٧، بالسيطرة على كامل أرض فلسطين، بما فيها مدينة القدس العربية، الأمر الذي جعلها تحتكر عمليات التنقيب والبحث.

٢ ـ إن الثغرة الكبرى في تاريخ فلسطين القديم لا تزال تتمثّل في ضعف مساهمة الباحثين العرب في دراسة المراحل التاريخية التي سبقت بدايات "العصر الحديدي"، في حدود سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد. وهي ثغرة تشكّل، إلى حد ما، عقبة أمام كتابة تاريخ فلسطين القديم كموضوع قائم بذاته، يندرج في حقل "الدراسات الحضارية"، ويتناول ـ كما يدعو إلى ذلك كيث وايتلايم ـ الاقتصاد والسكان والاستيطان والأديان والأيديولوجيات الخاصة بفلسطين بصورة عامة.

٣ ـ لقد برز بين الباحثين العرب في تاريخ فلسطين القديمة ـ الذين ركّزوا على

"العصر الحديدي" وما بعده، وحاولوا دحض نتائج الدراسات التوراتية ـ تياران: الأول، استند إلى علم الآثار وإلى المكتشفات الأثرية، وجعل الأرض الفلسطينية حقل دراسته، والثاني استند إلى علم اللغات القديمة وإلى نهج المقابلة اللغوية، وافترض أن شبه الجزيرة العربية أو اليمن هما موطن بني إسرائيل وأرض التوراة. ولم يقتصر الخلاف بين أنصار هذين التيارين على هذه القضية فحسب، بل شمل أيضاً أصل الفلسطينيين وأصل تسميتهم، إذ قدّر أنصار التيار الأول أن الفلسطينيين يعودون بأصولهم إلى جزيرة كريت وجزر بحر إيجه، أو أنهم كانوا سكان فلسطين أصلاً وامتزجوا بشعوب البحر، بينما يرفض أنصار التيار الثاني فكرة الأصول الإغريقية للفلسطينيين، ويرى أنهم نزحوا إلى فلسطين من غرب شبه الجزيرة العربية، مثلهم مثل الكنعانيين، أو أن أصولهم تعود إلى قبائل اليمن القديم.

٤ ـ لقد توصل الباحثون العرب الذين خلصوا إلى أنه كان لليهود حضور سياسي ما في فلسطين في الألف الأول قبل الميلاد، إلى أن التوراة لم تعد تشكّل مرجعاً يعكس الحقائق التاريخية. وهذا الاستخلاص كان قد تبنّاه قبلهم كثير من المؤرخين وعلماء الآثار الغربيين، فضلاً عن عدد من المؤرخين وعلماء الآثار الإسرائيليين من تيار "المؤرخين الجدد"، وفي مقدمهم يسرائيل فنكلشتاين، مدير معهد علم الآثار التابع لجامعة تل أبيب، والذي يؤكد أن تنقيبات علماء الآثار الإسرائيليين لم تتوصل إلى مكتشفات أثرية تزكّي صحة بعض القصص الواردة في التوراة، بما في ذلك قصص الخروج من مصر، والتيه في الصحراء، وغزو كنعان، ومملكة داود الموحدة. وكان فنكلشتاين توصّل منذ سنة ٢٠٠١، عند صدور كتابه المشترك مع عالم الآثار نيل آشر سيلبرمان، إلى خلاصة فحواها أن العالَم الذي كُتب فيه التوراة "لم تكن له علاقة بمملكة موهومة مزروعة بمدن ومسكونة بأبطال." فالتوراة ظهرت "في مملكة يهودا، في حدود نهاية القرن السابع قبل الميلاد"، وتكوّنت من "تجميع غني" لقصص تاريخية، وذكريات، وأساطير، وحكايات شعبية، وأمثال، وقصائد قديمة. ويضيف الباحث نفسه أن زعماء القدس، في عهد مملكة يهودا، قاموا بحملة صارمة للتطهير الديني عبر البلاد، و"جعلوا من الهيكل المطل على القدس المكان الوحيد الشرعي للعبادة ، فولدت الديانة التوحيدية من هذا الابتكار." وفي الوقت ذاته، طمح زعماء يهودا "إلى تحويل الهيكل والقصر الملكي في القدس إلى مركز روحي وإداري لمملكة يهودية شاسعة، معيدين خلق المملكة الأسطورية لداود وسليمان." ثم أخذت القدس فجأة، وفي مرحلة لاحقة، "تحتل مكانة مركزية في الوعي اليهودي، ونجحت التوراة في إقناع العالم بأسره بأن القدس لعبت، في كل الأزمنة، دوراً مركزياً في تجربة إسرائيل القديمة، وأن المنحدرين من داود كانوا يتمتعون بقداسة خاصة، في حين أنهم كانوا يشكلون، في الواقع، عشيرة أرستقراطية لا تختلف عن العشائر الأُخرى، يحاربون بشدة للبقاء في السلطة." بيد أن المكتشفات الأثرية الحديثة تبيّن ـ كما يتابع فنكلشتاين ـ أن حجم مدينة القدس، في تلك الفترة، كان "محدوداً جداً"، إذ إن عمارة المدينة، في القرن السابع قبل الميلاد، كانت "تغطي في أحسن الأحوال مساحة لا تتجاوز ستين هكتاراً، وهو ما يمثل نصف مدينة القدس القديمة الراهنة. وكان مجموع عدد سكانها في حدود ١٥,٠٠٠، مما يجعلها تشبه أي بلدة صغيرة في الشرق الأوسط."[٩٥] ■

المصادر

١ معاوية إبراهيم، "فلسطين من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد"، "الموسوعة الفلسطينية"، القسم الثاني، الدراسات الخاصة (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠)، المجلد الثاني، ص ٣.

٢ فراس السواح، "تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود" (دمشق: دار علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١)، ص ١٤.

٣ كيث وايتلايم، "اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني"، ترجمة سحر الهنيدي (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٩، أيلول / سبتمبر ١٩٩٩)، ص ٣٥.

٤ السواح، مصدر سبق ذكره، ص ١٢ ـ ١٣.

٥ وايتلايم ، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٤.

٦ عفيف بهنسي، "تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار" (دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، ٢٠٠٩)، ص ١١ ـ ١٢.

٧ بيان نويهض الحوت، "فلسطين: القضية، الشعب، الحضارة ـ التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين (١٩١٧)" (بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٩١)، ص ١٦.

٨ المصدر نفسه.

٩ كامل جميل العسلي (تحرير وترجمة)، "القدس في التاريخ" (عمّان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٩٢)، ص ٢٧ ـ ٢٨.

١٠ إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

١١ العسلي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥ ـ ٢٦.

١٢ وايتلايم، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

١٣ إبراهيم، "مصدر سبق ذكره، ص ٥ ـ ٧.

١٤ وايتلايم، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٥، ٢٧١.

١٥ المصدر نفسه، ص ٧٦، ٣٥٩ ـ ٣٦٢.

١٦ المصدر نفسه، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥، ٢٦٨ ـ ٢٧٠.

١٧ المصدر نفسه، ص ٣٥٧.

١٨ إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص ١ ـ ١٣٨.

١٩ المصدر نفسه، ص ٢٢ ـ ٤٢.

٢٠ المصدر نفسه، ص ٤٢ ـ ٥٨.

٢١ المصدر نفسه، ص ٥٨ ـ ٩٤.

٢٢ المصدر نفسه، ص ٩٤ ـ ١١١.

٢٣ نيلز لمكة، "يشوع والعنف الغربي"، في كيث وايتلايم وتوماس طمسن ونيلز لمكة وإنغرد هيلم وزياد منى، "الجديد في تاريخ فلسطين القديمة"، ترجمة عدنان حسن وزياد منى (بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

٢٤ المصدر نفسه، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

٢٥ المصدر نفسه، ص ١١٠ ـ ١١١.

٢٦ المصدر نفسه، ص ١١٢، ١١٦ ـ ١١٧.
٢٧ كمال الصليبي، "التوراة جاءت من جزيرة العرب" (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط ٢، ١٩٨٦)، ص ١١ ـ ١٢.
٢٨ المصدر نفسه، ص ٥٠ ـ ٥٣.
٢٩ المصدر نفسه، ص ١٣ ـ ١٤.
٣٠ المصدر نفسه، ص ١٨ ـ ٢١.
٣١ المصدر نفسه، ص ٢٤ ـ ٢٧.
٣٢ المصدر نفسه.
٣٣ الصليبي، "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨ ؛ كمال الصليبي، "حروب داوود" (عمّان: دار الشروق، ١٩٩٩)، ص ٢٧ ـ ٢٩.
٣٤ الصليبي، "حروب داوود"، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨ ـ ٣٩.
٣٥ فاضل الربيعي، "فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم" (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨)، المجلد الأول، ص ١٧.
٣٦ المصدر نفسه، ص ١٤.
٣٧ المصدر نفسه، ص ١٨.
٣٨ المصدر نفسه، ص ٤٦ ـ ٤٩، ٣٢٣، ٤٩٢.
٣٩ المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٦٣٦ ـ ٦٣٨ .
٤٠ المصدر نفسه، المجلد الأول، ص ٤٠٢ ؛ المجلد الثاني، ص ١٠١ .
٤١ المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .
٤٢ المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص ٣٢٠.
٤٣ فراس السواح، "الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم: نظرية كمال الصليبي في ميزان الحقائق التاريخية والآثارية" (دمشق: دار المنارة، ١٩٨٩)، ص ٢٠ ـ ٢١.
٤٤ فراس السواح، "آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي" (دمشق: دار علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥)، ص ٥٠ ـ ٥٢.
٤٥ المصدر نفسه، ص ٧١ ـ ٧٧.
٤٦ المصدر نفسه، ص ٨٦.
٤٧ المصدر نفسه، ص ٩٣ ـ ٩٤.
٤٨ المصدر نفسه، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، ١١٠.
٤٩ المصدر نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
٥٠ المصدر نفسه، ص ١٤٤، ١٥٠ ـ ١٥٢ .
٥١ المصدر نفسه، ص ١٧٧ ـ ١٧٩.
٥٢ المصدر نفسه، ص ٢٣٧.
٥٣ المصدر نفسه، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.
٥٤ المصدر نفسه، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٨.
٥٥ إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص ٤ ـ ٥ .
٥٦ المصدر نفسه، ص ١١٢ ـ ١١٤ .

٥٧ فيليب حتّي، "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين"، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق (بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٨)، الجزء الأول، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠.
٥٨ الحوت، مصدر سبق ذكره، ص ٣٦ ـ ٤٠.
٥٩ السواح، "آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي"، مصدر سبق ذكره، ص ٨٥ ـ ٨٦.
٦٠ خالد الدسوقي، "دراسات في شعوب الشرق القديم: الأموريون، الكنعانيون، الآراميون، العبريون، الفلسطينيون" (القاهرة: مكتبتي، ١٩٨٢)، ص ٢٠٧ ـ ٢١٠، ٢١٥ ـ ٢١٩.
٦١ المصدر نفسه، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
٦٢ المصدر نفسه، ص ٢٤٣ ـ ٢٥١.
٦٣ المصدر نفسه، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢، ٢٥١ ـ ٢٥٣.
٦٤ الصليبي، "التوراة جاءت من جزيرة العرب"، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣.
٦٥ المصدر نفسه، ص ٣٤ ـ ٣٥.
٦٦ الصليبي، "حروب داوود"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢.
٦٧ الربيعي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٨ ـ ٤٥٢.
٦٨ المصدر نفسه، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
٦٩ فاضل الربيعي، "القدس ليست أورشليم: مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين" (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٠)، ص ٨٨ ـ ٩٧.
٧٠ إبراهيم، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠.
٧١ نقولا زيادة، "فلسطين: من الإسكندر إلى الفتح العربي الإسلامي"، "الموسوعة الفلسطينية"، القسم الثاني، الدراسات الخاصة (بيروت، هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠)، المجلد الثاني، ص ١٤٢.
٧٢ زياد منى، "مقدمة في تاريخ فلسطين القديم" (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠)، ص ١٠٣.
٧٣ حتّي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢.
٧٤ المصدر نفسه، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥.
٧٥ زيادة، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩ ـ ٢٥٤، ١٤٢ ـ ١٤٣.
٧٦ المصدر نفسه، ص ١٤٥ ـ ١٤٦، ١٥١ ـ ١٥٣؛ الصليبي، "حروب داوود"، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩ ـ ٤٠.
٧٧ السواح، "تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
٧٨ الربيعي، "القدس ليست أورشليم: مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين"، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٥ ـ ١٠٦، ١٥٤.
٧٩ الربيعي، "فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم"، مصدر سبق ذكره، ص ٥٦٠ ـ ٥٦٢ .
٨٠ الربيعي، "القدس ليست أورشليم: مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين"، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠ ـ ١٥٢.
٨١ العسلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.
٨٢ خالد عبد الرحمن العك، "تاريخ القدس العربي القديم" (دمشق: مؤسسة النوري، ١٩٨٦)، ص ٢٣ ـ ٢٨.
٨٣ المصدر نفسه، ص ٤٧ ـ ٤٨.

٨٤ رجا عبد الحميد عرابي، "الكافي في تاريخ القدس: دراسة حول تاريخ القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر" (دمشق: الأوائل، ٢٠٠٩) ص ٤٢ ـ ٤٣.

٨٥ خزعل الماجدي، "تاريخ القدس القديم: منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني" (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦)، ص ٦.

٨٦ العسلي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩، ٢٢.

٨٧ المصدر نفسه، ص ٢٥ ـ ٣٢.

٨٨ السواح، "تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود"، مصدر سبق ذكره، ص ٣٩.

٨٩ السواح، "آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٧، ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

٩٠ الصليبي، "حروب داوود"، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧ ـ ٢٩.

٩١ المصدر نفسه، ص ٣٨ ـ ٣٩؛ الصليبي، "التوراة جاءت من الجزيرة العربية"، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣ ـ ٣٥.

٩٢ الربيعي، "فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم"، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ٢٤٩؛ المجلد الثاني، ص ٧٢.

٩٣ الربيعي، "القدس ليست أورشليم: مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين"، مصدر سبق ذكره، ص ١٩ ـ ٢٥.

٩٤ الربيعي، "فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم"، مصدر سبق ذكره، المجلد الثاني، ص ٢٩٦ ـ ٢٧٠.

٩٥ **Israel Finkelstein; Neil Asher Silberman, *La Bible dévoilée: Les nouvelles révélations de l'archéologie* (Paris: Bayard, 12ème e tirage, 2002), pp. 11-14.**

المراجع

بالعربية

- إبراهيم، معاوية. "فلسطين: من أقدم العصور إلى القرن الرابع قبل الميلاد". "الموسوعة الفلسطينية". القسم الثاني. الدراسات الخاصة. بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ١٩٩٠.
- بهنسي، عفيف. "تاريخ فلسطين القديم من خلال علم الآثار". دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، ٢٠٠٩.
- جوهر، هاني عبد العزيز. "اليهود في فلسطين في العصرين البطلمي والسلوقي ـ المكابيون: دراسة في الناحية الدينية والسياسية". القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٥.
- حتّي، فيليب. "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين". ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق. بيروت: دار الثقافة، جزءان، ١٩٥٨.

- الحوت، بيان نويهض. "فلسطين: القضية، الشعب، الحضارة ـ التاريخ السياسي من عهد الكنعانيين حتى القرن العشرين (١٩١٧)". بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، ١٩٩١.
- خلف، علي حسين. "الحضارة الكنعانية والتوراة". بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩.
- الدسوقي، خالد. "دراسات في شعوب الشرق القديم: الأموريون، الكنعانيون، الآراميون، العبريون، الفلسطينيون". القاهرة: مكتبتي، ١٩٨٢.
- الربيعي، فاضل. "إرم ذات العماد ـ من مكة إلى أورشليم: البحث عن الجنة". بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٠.
- ــــــــــــــ "فلسطين المتخيلة: أرض التوراة في اليمن القديم". دمشق: دار الفكر، مجلدان، ٢٠٠٨.
- ــــــــــــــ "القدس ليست أورشليم: مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين". بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠١٠.
- زيادة، نقولا. "فلسطين: من الإسكندر إلى الفتح العربي الإسلامي". "الموسوعة الفلسطينية". القسم الثاني. الدراسات الخاصة. بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، ١٩٩٠.
- السواح، فراس، "آرام دمشق وإسرائيل في التاريخ والتاريخ التوراتي". دمشق: دار علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥.
- ــــــــــــــ "تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود". دمشق: دار علاء الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١.
- ــــــــــــــ "الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم: نظرية كمال الصليبي في ميزان الحقائق التاريخية والآثارية". دمشق: دار المنارة، ١٩٨٩.
- الصليبي، كمال. "التوراة جاءت من جزيرة العرب". بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ط ٢، ١٩٨٦.
- ــــــــــــــ "خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل". لندن: دار الساقي، ١٩٨٨.
- ــــــــــــــ "حروب داوود". عمّان: دار الشروق، ١٩٩٩. [الأجزاء الملحمية من سفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العبري].
- عرابي، رجا عبد الحميد. "الكافي في تاريخ القدس: دراسة حول تاريخ القدس منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحاضر". دمشق: الأوائل، ٢٠٠٩.
- العسلي، كامل جميل (تحرير وترجمة). "القدس في التاريخ". عمّان: منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٩٢.
- العك، خالد عبد الرحمن. "تاريخ القدس العربي القديم". دمشق: مؤسسة النوري، ١٩٨٦.
- الماجدي، خزعل. "تاريخ القدس القديم: منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني". بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦.
- منى، زياد. "مقدمة في تاريخ فلسطين القديم". بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.
- وايتلايم، كيث. "اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني". ترجمة سحر الهنيدي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٩، أيلول / سبتمبر ١٩٩٩.

– وايتلايم، كيث وتوماس طمسن ونيلز لمكة وإنغريد هيلم وزياد منى. ″الجديد في تاريخ فلسطين القديمة″. ترجمة عدنان حسن وزياد منى. دمشق: قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤.

بالفرنسية

– **Finkelstein, Israel; Neil Asher Silberman.** ***La Bible dévoilée: Les nouvelles révélations de l'archéologie*****. Paris: Bayard, 12ème e tirage, 2002**